قضايا إسلامية

سلسلة يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية



الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي

(٣)

تأليف الدكتور
محمد إبراهيم الفيومي

القاهرة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

اهداءات ٢٠٠٣

أسره المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

قضايا إسلامية

سلسلة
يصدرها : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الاستشراق
في
ميزان الفكر الإسلامي



تأليف

أ. د. / محمد إبراهيم الفيومي

يشرف على إصدارها
الدكتور / محمد إبراهيم الفيومي

القاهرة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وما لنا ألاّ نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾

« قرآن كريم »

مقدمـــــة

إنه من الصعب بل من المستحيل أن يتم التعرف الصحيح على حقيقة الإسلام ما دامت جميع وسائل الإعلام الغربية والأكاديمية تنشر المفاهيم الخاطئة والانطباعات السيئة عن الإسلام والعرب . التى سأقدم طرفاً منها بين يدى القراء على صفحات هذا الكتاب وسأحاول تصحيح تلك المفاهيم وفق مصادرها العلميّة .. وإيجاد قبول مشترك للمفاهيم التى يستعملها كل طرف من الأطراف . لأننا إذا انطلقنا من مفاهيم لها قدرها العلمى المشترك واعتمدنا على انطلاقات غير معتدلة فإن الحوار يصبح بكل تأكيد مغلوطاً .

ومعلوم أن التفاهم الحقيقي والحوار المتكامل بين طرفين يتطلب إيجاد مساحة مشتركة من المفاهيم الفكرية المتفق عليها بين المتحاورين فى مجالات الإسلام الواسعة : المذهبيـة والسياسيـة ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية .

لذلك يجب التركيز على تلك المبادىء إذا أراد الغرب أن يقيم حواراً مع الإسلام وفق الركائز الأساسية التالية :

أولاً : النظر من جديد إلى حقيقة الإسلام من منابعه الأصيلة .

ثانياً : الحد من النظرة العرقية المشوهة للإسلام والعرب ، أما قد حان الوقت لكي تنتهي عنصرية الأقوياء ولكي يأخذ الحوار مكانه .

ثالثاً : أن تتوقف مكونات الرأى العام الغربى عن نشر الصور المشوهة والمرضية عن الإسلام والمسلمين والعرب[1] .

وفى النهاية نقول إن خير وسيلة للحوار هي التفاهم . إن التفاهم المتبادل هو دائماً الأداة الثقافية الضرورية لتقدير الشعوب حق قدرها .

« المؤلف »

---

(١) راجع الاستشراق . رسالة استعمار . أ.د./محمد إبراهيم الفيومى . دار الفكر العربى .

الفصـــل الأول

نظرات فى تاريخ الاستشراق

قال اللورد كرومر يصف متعربة المصريين :
« إنهم مسلمون وليس فيهم خواص المسلمين » .
« وأوربيون وليس فيهم خواص أوربية »[1] .

---

(١) حاضر العالم الإسلامي .
لوثرب ستودارد . الأمريكي .
نقله إلى العربية الأستاذ عجاج نويهض .

نظرات فى تاريخ الاستشراق

ظاهرة الاستشراق :

نحب أن نؤكد باديء ذى بدء ، ونحن نبحث ظاهرة الاستشراق : أنه لا يجوز أن نبحث ظاهرة الاستشراق على أنها سياسية ـ استعمارية فحسب ، لم تكن ترى فى الشرق إلا ما تتوق إليه ، بل يجب أخذ أية ظاهرة علمية أو ثقافية من مختلف جوانبها ، وتعدد أطرها ، ووجوهها ، بالمنهج العلمى الموضوعي ، مبتعدين عن التعميم خشية الالتباس ، حتى تتميز عناصرها ، وتتبين خصائصها من خلال الدراسة والبحث ، لذا يشترط علينا تعدى ضيق الرؤية « الاستعمارية » للاستشراق والبعد عن الحكم التسجيلى ووضعهم جميعاً فى قفص الاتهام تحت حكم واحد وحيثيات حكم واحد .

والاستشراق من حيث الرؤية العامة النظرية ، يفترض فيه رؤية موضوعية لتاريخ العلاقة التاريخية : القديمة ، والوسيطة ، والحديثة بين الشرق والغرب من أجل التواصل الحضارى ، والروحى ، بين أبناء شعوب حضارات ضاربة فى القدم مختلفة جغرافياً أو متباعدة تاريخياً ، ضرورة استمرار الوجود الحضارى ، وإقامة جسر ثقافى للتبادل المعرفى ، وهو مبدأ عرفته البشرية كوسيلة فعالة لإحياء حوار الحضارات ، وفى ذلك كله ما يعين على الخروج من الأزمات الحضارية التى كثيراً ما تتعقد وتتشابك علاقاتها ، وفى ذلك خير للشرق والغرب والتواصل الحضارى بين الشعوب .

لكن واقع الاستشراق من حيث منظوره التاريخي هو كما وصفه إدوارد سعيد[1] : أسلوب غربي للسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه .. وبأن الاستشراق قد شكل الحضارة الشرقية في كوكبة من الأفكار الشرقية ، كالاضطهاد ، والأبهة الشرقية ، القسوة الشرقية ، والحواسية الشرقية .

ولم يكن إدوارد سعيد مبالغاً حين كشف الاستشراق وفضح نواياه وأعماله التي تعاملت مع الشرق . لكن ليس من المنطق ، وليس من التاريخ أن نصدر حكماً عاماً على « أكاديمية الاستشراق » ففيها ذوو التوجه الاستعماري ، وذوو التوجه التبشيري ، وفيهم ذوو التوجه الموضوعي ، وذلك مما يقف مانعاً أمام إصدار حكم عام يدين الاستشراق ، وإن كان هناك من الأمثلة العديدة السيئة التي تعين الباحث على إصداره ، وقليل هي تلك الشواهد التي تشهد للاستشراق العلمي بحسن النية والموضوعية . فليس من السهل الحكم على الاستشراق ـ وهي خطوة لا بد منها ، ولا يتيسر ذلك إلا بعد تحرير المعرفة الشرقية ، من قوالب الاستشراق الاستعماري ، وذلك يتم من خلال مقارنة تصنيفية للمسلمات الثقافية والأخلاقية والشرقية والغربية لفرز ما هو شرقي حقيقي وأصيل مما هو استشراق موضوعي ، واستشراق استعماري .. أو تبشيري .. إلخ ، وتلك الخطوات تأتي على الطريق .

تاريخ مصطلح مستشرق :

يرى أربري[2] : ان أول استعمال لكلمة « مستشرق » رأينــــاه في سنة ١٦٣٠ حيث أطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية ، وفي سنة ١٦٩١ وجدنا « أنتوني ورد » يصف « صموئيل كلارك » بأنه « استشراق نابه » يعني بذلك أنه عرف بعض اللغات الشرقية ، وفي خلال

(١) الاستشراق ـ ادوارد سعيد ـ د. كمال أبو ديب ـ بيروت .

(٢) المستشرقون البريطانيون ص ٧ ـ ترجمة محمد الدسوقي نويهي .

المجادلة التعليمية بالهند التى حسمها تقرير « ماكولى » الشهير سنة ١٨٣٤ كان المستشرقون هم الذين نادوا بالتعليم والأدب الهنديين ، بينما سمى معارضوهم الذين رغبوا فى أن تكون الإنجليزية أساس التعليم بالهند (المستنجلزين) ...

ومما يؤسف له كما يقول أربرى أن ما أنتجه هذا النزاع المشهور من الحزازات قد ألصق باسم المستشرق قدراً كبيراً من القدح والنقد . ولا شك أن « تشارلز دولى » كان يشير إلى ذلك حيث يقول : « إن الشمس جعلتنى عربياً ولكنها ما شوهتنى قط بالاستشراق » .

ولكن أربرى يختار تعريف قاموس إكسفورد الجديد فيحدد « المستشرق » بأنه « من تبحر فى لغات الشرق وآدابه وذلك هو التفسير الذى سنعتمد عليه فى حديثنا التالى . وإن كان يفرض علينا أن ندع لآخرين أن يكتبوا عن ذلك الكم الغفير من الشهرة والصيت الذين عرفوا الشرق معرفة جيدة ، والذين استلهموا أدباً بديعاً ، ولكنهم خرجوا عن حد التعريف السابق فلا يستطاع تسميتهم مستشرقين[1] .

والتعريف كما يذهب أربرى : يحمل فى طياته التاريخية معنى الصراع الغربى والميول الاستعمارية ، مما ألصق به منذ ظهور المصطلح قبل أن يكون علماً ـ نزاعاً وتهماً وشكا فى توجهاته ... وذلك ما تشير إليه عبارة « تشارلز دولى » التى يقول فيها : إن الشمس جعلتنى عربياً .. ولكنها ما شوهتنى بالاستشراق . فهو منذ أن كان وهو مع توجهات الاستعمار ويحمل مثله الروح الصليبية مما جعل تاريخه جديراً أن يوصف : بأنه تاريخ الصراع والتضليل الثقافى ضد الإسلام .

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٧ .

علم الاستشراق :

يقول بارت[1] :

الإستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة ، وأقرب شيء إليه إذن أن نفكر فى الاسم الذى أطلق عليه : كلمة استشراق مشتقة من كلمة شرق .

وكلمة شرق تعنى مشرق الشمس ، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقى . والأمر إلى هذا الحد واضح كله . ولكن ما معنى كلمة شرق فى هذا المقام بالذات ؟

الظاهر أن اسم الشرق تعرض لتغيير فى معناه ، فالشرق بالقياس إلينا ، نحن الألمان ، يعنى : العالم السلافى ، العالم الواقع خلف الستار الحديدى . وهذه المنطقة يختص بها الاستشراق ، فمكانه جغرافياً فى الناحية الشرقية بالقياس إلينا . والمصطلح يرجع إلى العصر الوسيط ، بل إلى العصور القديمة ، إلى الوقت الذى كان فيه البحر المتوسط يقع كما قيل فى وسط العالم ، وكانت الجهات الأصلية تتحدد بالنسبة إليه . فلما انتقل مركز ثقل الأحداث السياسية بعد ذلك من البحر المتوسط إلى الشمال بقى مصطلح الشرق رغم ذلك دالاً على الدول الواقعة شرق البحر المتوسط .

كذلك تعرضت لفظة « الشرق » فى أعقاب الفتوحات العربية الإسلامية لتغيير آخر فى معناها ، أو إذا شئنا دقة أكثر ، تعرضت لاتساع فى نطاق مدلولها .

---

(١) الدراسات العربية والإسلامية فى الجامعات الألمانية ص ١١ ترجمة مصطفى ماهر دار الكتاب العربى ١٩٦٧ .

ويراجع : الاستشراق والخلفية التاريخية للصراع الحضارى ص ١٨ ، محمود حمدى زقزوق .

فقد انطلق الفاتحون فى ذلك الوقت من شبه الجزيرة العربية لا ناحية الشمال والشرق فحسب ، بل ناحية الغرب كذلك ، وزحفوا فى غضون عشرات من السنين إلى مصر وشمال إفريقيا حتى بلغوا المحيط الأطلسى ، واستوطن الإسلام قطاع بلدان شمال إفريقيا دينا وتعرب السكان تدريجياً ، وهم الأقباط فى مصر والبربر غربها ومنذ ذلك الحين تعتبر مصر وبلدان شمال إفريقيا الذى يسمى بالمغرب أى بلد غروب الشمس ، وإن كان اسم ـ الاستشراق ـ يفترض أنه يختص بالبلدان الشرقية دون غيرها .

يعتمد بارت فى تحديده لمفهوم الشرق على الرقعة الجغرافية التى انتشر فيها الإسلام وليس على المفهوم الجغرافى ، فهو قد أخرج من تعريف الجغرافيين دول شرق أوربا ... وأدخل فيه ما يعد من الشمال والجنوب .. إلخ . وعلى ذلك يكون مفهوم الشرق ليس جغرافياً ، إنما جرى على العرف الاستشراق وهو دول الإسلام ، فهو شرق ـ الإسلام . فالإسلام دائماً هو الشرق .. وذلك تقسيم يقوم بالدرجة الأولى على مفهوم الثقافة العرق .. وهو أن الإسلام يماثل العقلية السامية لانطوائه على خصائص السامية .

يرى جويدى[1] : سمو الوسيلة لدرس كيفية النفوذ المتبادل بين الشرق والغرب إنما هو « علم الشرق » بل نستطيع أن نقول ان غرض هذا العلم الأساسى ليس مقصوراً على مجرد درس اللغات أو اللهجات أو تقلبات تاريخ بعض الشعوب . كلا .. بل من الممكن أيضاً أن نقول : إنه بناء على الارتباط المتين بين التمدن الغربى والتمدن الشرقى ، وليس علم الشرق إلا باباً من أبواب تاريخ الروح الإنسانى » وليس صاحب علم الشرق الجديد بهذا اللقب الذى يقتصر على معرفة بعض اللهجات المجهولة ، أو يستطيع أن يصف عادات بعض

---

(١)علم الشرق وتاريخ العمران ـ الزهراء ١٤١١ هـ

الشعوب ، بل إنما هو جمع بين الانقطاع إلى درس بعض أنحاء الشرق وبين الوقوف على القوى الروحية الأدبية الكبيرة التى أثرت على تكوين الثقافة الإنسانية ، هو من تعاطى درس الحضارات القديمة . ومن أمكنه أن يقدر شأن العوامل المختلفة فى تكوين التمدن فى القرون الوسطى مثلاً أو فى النهضة الحديثة .

وعلم الشرق هذا علم من علوم الروح يتعمق فى درس أحوال الشعوب الشرقية ولغاتها وتاريخها وحضارتها ثم يستفيد من البحوث الجغرافية والطبيعية أن يسمى كما سميناه درس تاريخ الروح الإنسانى من وجهة نظر الشرق ، لأن إظهار قوى الروح واستعدادها باختلاف الزمان والمكان » .
لكن جويدى يرى : أن علم حوار الحضارات ـ علم الروح الإنسانى ـ علم تطور المناسبات الثقافية : وذلك التعريف يمثله المستشرقون الأكاديميون والمنصفون من مؤرخى الحضارات :[1]

ويبين على غير الحقيقة : أن الشرق من خلال مؤلفات الاستشراق أخذ مكانه فى القرن الثامن عشر إلى جانب الغرب فى أفق شمولى .. وليس الأمر كذلك .. إنما بدأت مرحلة صراع الغرب مع الشرق فهو تاريخ عداوة .. واستعمار .

يشير رودنسون فى تعريفه : ولادته وزمانها وموطنها .. ثم يظهر من ناحية أخرى نقداً للاستشراق فى بداياته من حيث انه يشمل العديد من المجالات غير المتوازية ، لكنه يرمى بتعصبه الذين جابهوا الاستشراق واعتبرهم هم الذين « ألحقوا به أضراراً وندوباً » .

---

(١) نفس المرجع ص ١٤

يرى رودنسون[1] : ولد الاستشراق وظهرت كلمة مستشرق فى اللغة الإنجليزية حوالى ١٧٧٩ .. كما دخلت كلمة الاستشراق على معجم الأكاديمية الفرنسية ١٨٣٨ ، وتجسدت فكرة نظام خاص مكرس لدراسة الشرق ، ولم يكن المتخصصون بعد من العدد بحيث يمكنهم تشكيل جمعيات أو مجلات متخصصة فى بلد واحد أو شعب واحد أو منطقة واحدة من الشرق ، ومن الناحية الأخرى كثيراً ما كان أفق هؤلاء المستشرقين يشمل عدداً من المجالات بطريقة غير متوازية فى عمقها ، ومن هنا بدأ تصنيفهم « كمستشرقين » . وشهدت فكرة الاستشراق تعمقاً كبيراً إلا أنها تعرضت كذلك لأضرار وندوب . وكان الشرق يأخذ مكانه فى مؤلفات القرن الثامن عشر إلى جانب الغرب فى أفق شمولى .

أما مالك بن نبى[2] فيقول : إننا نعنى بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية ، ثم علينا أن نصنف أسماءهم فى شبه ما يسمى « طبقات على صنفين » :

● من حيث الاتجاه العام : نحو الإسلام والمسلمين فى كتاباتهم : فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية وطبقة المنتقدين لها من المشوهين لسمعتها .

● من حيث الزمن : طبقة القدماء مثل دورببالك ، والقديس توما الأكوينى وطبقة المحدثين مثل كاردافو وجوزلدزيهر .

لكن مالك بن نبى يؤكد على عمل بالغ يقوم به الشرقيون وهو : تصنيف المستشرقين إلى طبقات ، وذلك علم برع فيه مؤرخو الإسلاميين دون سواهم من الأمم .

---

(١) صورة العالم الإسلامي فى أوربا ص ٤٧ ـ الطليعة ١٩٧٠م .

(٢) إنتاج المستشرقين وأثره فى الفكر الإسلامي الحديث ص ٥ مالك بن نبى ـ بيروت .

وأما حسين الهراوى فيقول : وعندى أن الاستشراق مهنة وحرفة كالطب والهندسة والمحاماة ...

وهو أقرب الشبه إلى مهنة التبشير ، ولا يخفى عليك أن التاريخ الإسلامى ينقسم إلى قسمين : القسم الأول منه هو الإسلام من حيث هو دين وعناصره : القرآن والحديث ـ وحياة الرسول (ﷺ) .

والقسم الثانى منه : تاريخ الدول العربية التى نشأت وعاشت فى الإسلام ، وهذا القسم قد خدمه المستشرقون حقاً ، لأنه نوع من المباحث التاريخية الحرة .

أما القسم الأول منه فهو بيت القصيد ، ولا يتصدى له كل المستشرقين والذين يتصدون له ترى كلامهم مملوءاً بالتشكيك والاستنتاج الخاطىء والغمز واللمز ، أن يكيلوا التهم جزافاً ويرموا الدين الإسلامى بما شاءت عقائدهم الخاصة وفائدتهم المادية[1] .

ولا شك أن هذا التعريف يصيب الاستشراق فى الصميم لأن عداوتهم للإسلام بالغة السوء .. وأما وصفه بالحرفة فيعنى عدم الموضوعية ويعنى التحيز والاتهام المسبق كالمحاماة .

يعرض د. شكرى النجار لمفهوم الاستشراق ويحدده بثلاثة مفاهيم ، غير أنه يعرض عن توضيح ما إذا كانت تلك المفاهيم الثلاثة تطلق على مراحل مختلفة للاستشراق أم أنها كانت تلك المفاهيم الثلاثة تطلق على مراحل مختلفة للاستشراق أم أنها تمثل زوايا الاستشراق المتعددة . والذى نراه كما تعرب عنه وجهة نظر الباحث أنها زوايا للاستشراق تعبر عن أبعاده التاريخية والمنهجية إذ

---

(١) نحن والمستشرقون : مالك بن نبى ـ المعرفة ـ يوليو ١٩٣٢ حسين الهراوى .

يرد ظهورها جميعاً إلى القرن التاسع عشر ، وهو العصر الخصيب للاستشراق والاستعمار والتبشير[1] .

المفهوم الأول ـ المعنى الأكاديمي :

يطلق على كل من يتخصص في أحد فروع المعرفة المتصلة بالشرق من قريب أو من بعيد .

وكانت هذه الكلمة تطلق على دارس الآداب الشرقية أو اللغات الشرقية أو المتخصص في تاريخ إحدى الدول الشرقية ، أو حتى المتخصص في سوسيولوجية أو أنثروبولوجية الشعوب الشرقية . ويبدو أن هذا الميل القديم لإطلاق مصطلح « استشراق » . على كل هذه الدراسات المتعددة المتباعدة المتباينة ، بدأ الآن في الانحسار ، إذ لا نكاد نجد عالم الأنثروبولوجيا مثلاً ، الذي يدرس إحدى الثقافات الشرقية ، يسمى نفسه مستشرقاً على غرار ما كان يحدث في القرن التاسع عشر ـ فكلمة مستشرق وكلمة استشراق ، آخذتان في الاختفاء في الأوساط العلمية والأكاديمية لتحل محلها كلمات أخرى أكثر دلالة على التخصص العلمي .

على هذا التعريف : تكون كلمة الأكاديمية ـ والتخصصية ليست من معاني الاستشراق ، والاستشراق بالمعنى العلمي الأكاديمي بدأ في الاختفاء .

---

(١) في الاهتمام بالاستشراق ـ د. شكري النجار ـ مجلة معهد الإنماء العربي ـ عدد ٣١ ـ الاستشراق : التاريخ ، المنهج ، الصورة .

المفهوم الثانى ـ المعنى العرق :

وهو اعتبار الاستشراق أسلوباً للتفكير يرتكز على التميز الثقافى والعقلى والتاريخى والعرق بين الشرق والغرب[1] .

ولقد أدى هذا المفهوم العرق بعدد كبير من الكتاب والفلاسفة والسياسيين وحتى الاقتصاديين ، ورجال الحكم والإدارة أيام الاستعمار ، إلى أن يتقبلوا فكرة التميز بين الشرق والغرب ، كنقطة انطلاق لإقامة نظرياتهم وكتاباتهم الاجتماعية ودراساتهم المختلفة عن النمو الاقتصادى للشرق ، وأفكارهم الخاصة عن الشعوب الشرقية ومصائرها . هذا المفهوم الفضفاض لكلمة استشراق سمح لنا بأن ندخل فى عداد المهتمين بالشرق كل فئات الكتاب والمفكرين والأدباء وغيرهم ، ممن عالجوا حياة الشرق فى مؤلفاتهم ، بصرف النظر عن ماهية هذه المؤلفات ، كفيكتور هيجو ، و « دانتى » و « ماركوس » ، وغيرهم ، إلا أن هذا المفهوم يصطدم بعقبات كثيرة هامة تتعلق فى الأغلب بالمنهج العلمى .

فإن الذين يصنفون تحت هذا التصنيف تأتى كتاباتهم وقد خلت من الالتزام بقواعد المنهج العلمى ، تحمل تحاملا وزيفا وجهلا بالاسلام ونبيه ، ككتابات « دانتى » عن الإسلام ونبيه .. وماركس حينما جعل الأديان كلها بمنزلة واحدة . فكتابات دانتى كانت أدخل فى باب التخيل وأبعد عن الحقيقة والتاريخ وكتابات ماركس يشوبها التعميم والرأى الشخصى . وهذا المفهوم يؤكد ماصدق المفهوم الأول الذى يرى أن الالتزام بالأكاديمية والمنهجية العلمية لايجامع مصطلح الاستشراق الذى يقوم منهجه كما يوضح التعريف

---

(١) نفس المرجع . ص ٦٠ .

الثانى على التمايز العرقى والعقلى والثقافى بين الشرق والغرب . وهذه العرقية كانت من أهم موضوعات الاستشراق ومدخلا سهلا للاستعمار واستغلال الشعوب . وباسم التميز العرقى ، أعلن الغرب وصايته على الشرق واستباح حرماته ، واستغل ثرواته

المفهوم الثالث : مطلب استعمارى :

هو الأسلوب لفهم الشرق من أجل السيطرة عليه ، ومحاولة إعادة تنظيمه وتوجيهه والتحكم فيه .

وهذا المفهوم هو الذى فضح الاستشراق ، وهو يمثل البعد الثالث لرسالة الاستشراق حيث أصبح أداة ووسيلة للتعبير عن التناقض والتباين بين الشرق والغرب .

فمن أجل ذلك الهدف الاستعمارى درس الشرق سياسيا ، واقتصاديا واجتماعيا وأيديولوجيا وعلميا بل وخياليا كذلك .. ومن أجل تلك الرسالة الاستعمارية أصبح الاستشراق يحتل مكانة هامة بين مختلف مجالات العلم والمعرفة لدى الاستعمار وميول الغرب الاستغلالية .

من هنا كان الاستشراق يمثل مجموعة اهتمامات الغرب بالشرق دينيا وثقافيا وبضائع وموارد وسوق عمالة ، سوق قطع غيار » للغرب ، وإرساء فكرة أن العالم الشرقى والإسلامى يمكن أن يكون معملا للفكر الغربى والبحث العلمى .

ومن هنا كان الاستشراق : أداة استعمارية ساهم بشكل جدى فى توسيع الصراع بين الغرب والشرق وزج بالإسلام فى حلبة الصراع ـ الإسلام والمسيحية الغربية ـ ومع اليهودية وتحريف القرآن وإدعاء محمد النبوة .. والعرقية وصحراوية الثقافة والعقل الأرامى والعقل السامى .. إلخ ، وكانت

الصورة المتوقعة لهذا الزيف الثقافي أن يزداد جشعا في نهش الشرق ، مادام الشرق قد صوروه بصور متخيلة ليظل الغرب متميزا عنه ، ويبقى الهدف مع ذلك واضحا .

ويستعرض رضوان السيد[1] التيار الانتقادى للمستشرقين ، فمنهم من يصف أعمال بعض المستشرقين بأنها تقدم صورة شمولية ساذجة ، والبعض الآخر لاتخرج أعماله عن تقارير مخابرات سريعة .. وكلتا الرؤيتين تقدم رؤية الشرق مستندة إلى مركزية غربية .. لذلك كان الاستشراق ــ في نظر هؤلاء النقاد ــ يتناثر وينحل في تخصصات متباينة كالتاريخ .. والاقتصاد .. والسياسة .. إلخ ، لم يعد هناك عالم واحد اسمه : الاستشراق . بل هناك عوالم متباينة يحمل كل منها عنوان المجال الذى يهتم به . وإذا كانت مفاهيم الشرق ضبابية فإن مفهوم الاستشراق غدا كذلك ضبابيا .

بل إن الأوساط الغربية الأكاديمية التى تهتم بالتخصص الدقيق ، ترفض الاستشراق وترى أنه لم يتقدم ، ولم يصبح بعد أحد مجالات المعرفة الانسانية الهامة . من هنا نفهم اصرار « إيف لاكوست » على أنه ليس مستشرقا في المقابلة التى أجرتها معه مجلة الإنماء العربى في العدد الثانى .

ولماذا لا يتبرأ منه بعدما دفع تاريخه بالصراع بين الشعوب وروج للعرقية ؟ أليس هو الذى خطط للاستعمار كيف يستغل الشرق اقتصاديا وثقافيا ؟

وأليس هو الذى ساهم عن قصد متعمد تحت ستار الأكاديمية في تفتيت الشرق الإسلامى .

---

(١) ثقافة الاستشراق وعلاقات الشرق بالغرب ــ إسهام مهدى لرودى بارت مجلة معهد الإنماء العربى ، عدد ٣١

وأليس هو الذى أسس باسمه ، بالأكاديمية والجامعية وقوانين البحث العلمي قاعات البحث العلمي لدراسة الإسلام ... مايسمى بالإسلام العثماني . والإسلام العربي والاسلام السني والاسلام الشيعي .. والاسلام المذهبي والاسلام المحمدى . ومازال ينتج : الاسلام الأصولي والاسلام الارهابي والاسلام البترولي .

وأنه في النهاية هو الذى أوجد مقولات : العرق صحراوية الثقافة ومحمد والجنس .. وبشرية القرآن .. والعربي والقرصنة .. وليالي الأنس في الشرق .

وأنه عليه وحده تقع مسئولية توتر العلاقات بين الشرق والغرب . وتقديم الاسلام مشوها الى أوربا ، ووضع الوثيقة الشرعية للصراع الفكرى والثقافي بين الغرب والشرق فأحدث جرحا عميقا لا يندمل بين الغرب والاسلام .

فمن هو المستشرق ؟

يحدده ميكائيل أنجلو جويدى بقوله : وليس صاحب علم الشرق الجدير بهذا اللقب بالذى يقتصر على معرفة بعض اللغات المجهولة ، أو يستطيع ان يصف غرائب عادات بعض الشعوب ، إنما هو من جمع بين الانقطاع الى درس بعض أنحاء الشرق وبين الوقوف على القوى الروحية الأدبية الكبيرة التي أثرت على تكوين الثقافة الانسانية . هو من تعاطى درس الحضارات القديمة ومن أمكنه أن يقدر شأن العوامل المختلفة في تكوين التمدن في القرون الوسطى مثلا أو في النهضة الحديثة وفي هذه الكلمات مايدل على إمكان بل وجوب التعاون فيما بين الشرقيين والمستشرقين ، إذ لاشك أنه قلما أتيح لمن لم ينشأ في بلاد الغرب مثلا أن يجد الاجادة كلها في معرفة هذه اللغة الشريفة وآدابها وأن يصل الى درجة التفوق التي أدركها علماء الشرق وأئمة اللغة العربية[١] .

(١) علم الشرق ــ وتاريخ العمران ــ ميكائيل أنجلو جويدى .

إن جويدى يؤكد دائما ـ فى رسالته علم الشرق وتاريخ العمران ـ وهى أربع محاضرات ألقاها فى قاعة الجمعية الجغرافية الملكية فى القاهرة ، وهو من أساتذة روما ـ على الحوار والتعاون حتى أنه أطلق لقب أمراء المستشرقين على أولئك النفر المتعاون مع مفكرى الشرق .

فيقول : صاحب ذلك المصطلح ، إنه إذا جمع علماء الشرق بين فضلهم فى البحث عن ماضيهم وعن قواعد لغاتهم ، وآثارهم الأدبية ، وبين الوقوف على ما سبق فى العالم المتمدن من رونق العمران ومن صيغ الحياة الروحية المختلفة « خصوصا فى العالم الكلاسيكى » فمن الممكن أن نسميهم : « أمراء المستشرقين » لو أن من المألوف توزيع هذه الألقاب كما وزعت على الشعراء المعاصرين .

والخلاصة أنه فى التعاون بين المستشرقين والشرقيين سر النجاح فى تقدم هذه العلوم .

ولاشك فى أن هذا الإقتراح وهو تعاون الشرقيين مع المستشرقين ، وضع أساسا جديدا لتوثيق العلاقات بين ثقافتين ، والتأكيد على وجوب التفاهم والتعاون نحو مرحلة جديدة .

يعرض أنور عبدالملك فى دراسته[1] عن الاستشراق لتعريف جويدى لله « مستشرق » فيقول : « إننى أعنى بالمستشرق هنا ، أولئك الذين يدرسون الشرق الأدنى إذ أن فكر الهند والصين هو بالتأكيد فكر ذو أهمية رئيسية لمعرفة سبل الذهن .. لكنه ليس على أية صلة حيوية بنا » هذا من حيث التعريف العام للمستشرق[2] لكن جويدى لا يرضى عن ذلك التعريف

---

(١) (الاستشراق فى أزمة ـ أنور عبدالملك ـ ترجمة : د. حسن قبيس ـ مجلة معهد الإنماء العربى ـ الفكر العربى عدد ٣١ ـ الاستشراق التاريخ والمنهج والصورة ١٩٨٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٧٠ .

للمستشرقين لأنه تعريف فيه عمومية غير مطلوبة لأنها تجعل دراسة الشرق الإسلامي غير مستهدفة .. لذلك عدل عنه إلى تعريف أشد خصوصية وأوضح هدفا وهو : « وأما نحن المستشرقين فالواقع أننا ننظر باتجاه الثقافات التي يظهر فيها العنصر الشرقي بأتم تعبيره ، أي باتجاه الثقافات القومية الصافية ، باتجاه الإسلام ، مثلا ، ليس فقط من أجل إعادة خلق عالم أجنبي ــ يتمتع على كل حال بقدر كبير من القيمة والكفاءة العلمية ــ بل « أيضا » لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة التي تمكننا من أن نفهم كل الفهم طبيعة العناصر التي كونت ذلك الانصهار الرائع الخصب الذى حصل فى المنطقة الهلينية[١] .

وذلك يعنى فى رأى أنور عبد الملك : أن على المستشرق ، إذا شاء أن يستوفى شروط الاستشراق أن ينطلق من العالم الكلاسيكى ــ لكى يقع فى موقف معاد للتاريخ ، ولكن ينبغى أن نرى جيدا أنا مازلنا ــ تاريخيا ــ فى عصر الهيمنة الأوروبية .

مجالات الاستشراق :

نشأت عن هذا التيار الفكرى الاستشراقى المؤلفات الرئيسية لأهم المدارس الاستشراقية فى الغرب : فرنسا ، ألمانيا ، هولندا ، أسبانيا ، إيطاليا ، روسيا ، الولايات المتحدة . ويميز يوسف أسعد داغر[٢] : بين ثمانية عناصر إيجابية فى الدراسات العربية الاسلامية : دراسات الحضارات القديمة ، تجميع المخطوطات العربية فى المكتبات الأوربية ، إنشاء لوائح بالمخطوطات ، نشر

(١) دليل الأعارب الى علم الكتب وفن المكتبات ١٩٧٤ نص من أزمة الاستشراق ص ٧٢ .

(٢) الاستشراق فى أزمة .

مؤلفات عديدة مهمة ، إلقاء درس منهجي ـ بطريقة الاستشراق ـ على العلماء الشرقيين ، تنظيم مؤتمرات الاستشراق ، كتابة بعض الدراسات ـ التي كثيرا ما تكون ناقصة ومغلوطة من الناحية اللغوية لكنها متماسكة ودقيقة من حيث المنهج . تلك مجالات الاستشراق لاشك في أنها قد ساهمت في تنبيه الوعي القومي في مختلف بلدان الشرق وفي تنشيط حركة النهضة العلمية واليقظة الفكرية . ذلك من جهة . غير أنه من جهة أخرى ، فإن هذا العمل نفسه كان مشبعا إلى حد بعيد جدا كما يقول أنور عبدالملك بالمسلمات ـ وبالعادات المنهجية وبالمفاهيم التاريخية ـ الفلسفية التي كان لها أن تحبط ، في كثير من الأحيان ، نتائج الأعمال الدؤوبة . وقيمتها العلمية . ولما كان المستشرقون خليطا في قولنا من الجامعيين ورجال الأعمال والعسكريين والموظفين الاستعماريين والمبشرين والصحفيين والمغامرين ، الذين كان هدفهم يقتصر على التعرف على الحقل المزمع احتلاله والولوج الى أفئدة الشعوب من أجل تأمين انقيادها اللغوى لأوربا .. كما يقول جاك بيرك[1] . إن زاوية النظر التي اعتمدها « المكتب العربي » قد جعلت دراسة مجتمعات شمال أفريقية موجهة منذ البداية .

تصنيف الاستشراق :

يذهب بعض النقاد للاستشراق إلى محاولة التخفيف من النقد الهجومي عليهم بما يحاوله من إيجاد تصنيفات عقلية إلى أن هناك ثلاثة مستويات للاستشراق :

، معتدل في رؤيته وهو الجامعي الأكاديمي .

---

(١) العرب بين الأمس واليوم ـ ترجمة كمال أبوديب .

- يتوسط بينهما ...

متطرف وهم الذين نبتوا في حضن الاستعمار .

وذلك من حيث هي قسمة عقلية مقبولة غير أنها خالية تماما من الصدق ، لأن الخارج وهو الواقع لايخضع لها . ولاتلقى قبولا بين أوساط النقاد للدراسات الاستشراقية فنرى إدوارد سعيد يقسمه الى :

- الاستشراق الجامعي .

الاستشراق المسيحي الغربي أو الديني .

- الاستشراق المعلمن المبطن .

الاستشراق السياسي[1] .

ويذهب مكسيم رودستون الى تقسيمه الى ثلاثة تيارات :

ـ تيار نقص : يقوم على الشعور بتفوق الغرب واحتقار جميع الحضارات الأخرى .

ـ تيار رومانسي تغريبي : يستنشق بمتعة عبق الشرق ، ويزيد هذه المتعة فقر الشرق المتزايد .

ـ وتيار علمي تخصصي اهتمامه الأساسي على ماضي الشرق .

وهناك تقسيمات أخرى مثل :

ـ تيار تقليدي وهو الذي ساير الاستعمار وجعله أداته .

ـ تيار تجديدي ..

بيد أن إدوارد سعيد يعطيه سمة واحدة تحت مسمى واحد وهي :

---

(١) الاستشراق ـ ترجمة كمال أبوديب .

« مؤسسة مشتركة للتعامل مع الشرق »

مهما تعددت مفاهيمه وساهم نشاطه الدؤوب على جعلها متداولة فهو وجه واحد من حيث كونه ذا دلالة أكاديمية أى بحثا جامعيا .

أو كونه أسلوبا فكريا قوامه تمايزان أساسيان : وجودى ومعرفى بين غرب يدعي أنه يعرف نفسه تماما ــ بنفسه ــ وبين شرق قابل لمعرفة الغير ، وعاجز ذاتيا عن معرفة نفسه .

وكونه متداخلا مع بنى الدولة الحديثة فى الغرب ، ومتشابكا مع توجهات المجتمع المدنى فيه ، ولوحدة الهدف صار « مؤسسة مشتركة للتعامل مع الشرق » .

ويذهب أنور عبدالملك إلى تصنيفهم إلى صنفين :

- المستشرقون الأقحاح .
- خليط مؤتلف من جامعيين ومخابرات ورجال أعمال وتبشير .

ويعتبر الفريقان أن الشرق والشرقيين « موضوع الدراسة » موسوم بالغيرية شأنه شأن ماهو آخر ، سواء كان « ذاتا » أم « موضوعا » .. موضوع الدراسة هذا ــ الشرق ــ يوصف كما يليق به ، بأنه سلبى . لا يساهم فى الأمور ، « تاريخية » فضلا عن أنه فوق كل ذلك معدوم النشاط ، معدوم الاستقلال ، معدوم السيادة تجاه نفسه ، الشرق أو الشرق الوحيد ، أو الذات الوحيدة ، التى يمكن التسليم بها فى النهاية القصوى ، هو الكائن المستلب ، أى الذى إذا قيس بغيره كان أمرا آخر . إنه الكائن المطروح والمفهوم والمحدد ــ والمفعول به ــ من قبل الغير . من هنا يتبنى الفريقان قصورا جوهريا لبلدان الشرق المدروس وأممه وشعوبه .. وهو شعور يقوم على العرقية والعنصرية . وفى كلتا النظريتين يتأثران معا بالمحورية الأوربية .

الاستشراق الأكاديمي وضعف صوته :

يقول بارت : لم يتبع تطور الاستشراق من مرحلة التحول النهائي إلى علم قائم على النقد التاريخي ، طريقاً مباشرة مستقيمة ، ولم يتم للاشتغال بالشرق وبمحمد وبالدين الذى نشره ــ التحرر من طريقة البحث اللاهوتية المبنية على الدفع والمشاحنة إلا فى العصر الحديث وتدريجياً .

ولكن الجهود التى بذلت لإنصاف عالم الشرق ورسم صورة له مستمدة من المصادر تعرضت من حين لآخر لاتجاهات اعترضت سبيلها ، أو غطت عليها وأدت إلى تشويه صورته .

ويرى بارت أن تطور الاستشراق وتشكله كعلم لم يكن سهلاً إنما كانت تكتنفه صعوبات كثيرة منها : مدى استعداد الناس (الغرب) للانصراف عن الآراء السبقية ، وعن كل لون من ألوان الإنكار الذاتى ومدى اعترافهم لعالم الشرق بكيانه الخاص الذى تحكمه نظمه الخاصة ... فعندما اجتهد بعض المستشرقين فى نقل صورة موضوعية قائمة على النقد التاريخى ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، بسبب تلك العوائق ، ولكن الجهود متجهة إلى فهم الموضوعات فهماً موضوعياً .

وأنه ظهرت دراسات تحمل هذا المعنى العلمى الموضوعى ذات تأثير متنوع ترى فى النبى العربى أداة الله ومشرعاً وحكيماً ورسولاً للفضيلة وناطقاً بحكمة الدين الفطرى مبشراً به .

وصحب هذا الاتجاه تحمس رومانتيكى لكل ما هو شرق . وجوته والديوان الشرق ، وصف أعمال جوتسه هانس هانريش شيدر (١٨٩٦ ــ ١٩٥٧) « يصح أن يسمى بالعهد الأعظم لبحوث الشرق » .. ويرى بارت أنه لا علاقة به بالاستشراق .

ثم ظهرت بعض المؤلفات العامة المعتدلسة عن الإسلام والحضارة الإسلامية وحل محل الآراء التى تبناها اللاهوتيون حتى ذلك الوقت والتى تمثلت فى وصف محمد (ﷺ) بأنه شيطان . ووصف القرآن الكريم بأنه مزيج من اللغو الباطل ، حل محلها آراء أخرى أقل عنفاً وأقرب إلى الاعتدال والإنصاف للإسلام والمسلمين[1] .

لا نستطيع أن ننكر عمل الاستشراق كله فإن هذا والله لعين الظلم ومثل هذا الحكم يقتضينا تصنيف عمل الاستشراق ـ إذ ليس وارداً ونحن نناقش تصنيفات الاستشراق أن ننكر عليهم تباين أعمالهم ، فمنهم من كانت له أياد بيضاء على الثقافة الإسلامية والعربية . وتحقيق التراث وإخراجه ، وساهم بشكل فعال فى توضيح المفاهيم الإسلامية والثقافية .. غير أننا نستطيع ، بجانب ذلك الاعتراف ، أن نعدهم مدرسة قائمة بذاتها ، أو تصنيفاً له مسمى واحد يشكلون قوة أمام قوى الاستشراق المعادى للموضوعية المتحررة من أطماع الاستعمار . إنما نستطيع القول بأن ثمة أفراداً يدرجون تحت كل التقسيمات التصنيفية للاستشراق ذوى نظافة وشرف لكنهم هامشيون فى الاستشراق المعاصر ، وهامشيون فى نطاق الثقافة العربية ، وهم الذين يحسون عمق الأزمة المنهجية ، وفساد علاقة الشرق بالغرب .. حتى بلغ بهؤلاء المخلصين من المستشرقين الذين قرأوا الإسلام بعمق وصفاء وإخلاص ونزاهة بحث ، أن اعتنقوا الإسلام .. حتى ذلك الماركسى منظر النظرية الاشتراكية فى فرنسا جارودى .. ومن الذين أعربوا عن طموحاتهم نحو عودة تجديد العلاقة بين الشرق والغرب على أسس جديدة : هليموت شميث حين قال : أريد أن

---

(١) الاستشراق ص ٣٢ ـ د. محمود حمدى زقزوق .

أكتب عملاً عن اللقاء الإنسانى والحضارى فى ديانات التوحيد ، على الخصوص ، المسيحية والإسلام .

من المفرح أن نلاحظ بأن الغربيين ، عدداً ونوعية ، انخرطوا فى عهد جديد لتفهم الإسلام تفهماً مطابقاً لصورته الحقيقية . من بين هؤلاء أخص بالذكر موريس بوكاى ، مارسيل بوزار ، فانسان مونتاى ، روجيى جارودى ، ميشال لولونج ، مارسيل بوزار الذى حاول دفع بعض قطاعات الجمهور الغربى للتخلى عن العرقية لتستطيع فهم تطلعات الشعوب الإسلامية المشروعة . ما كتبه بوزار يهدف أيضاً إلى مكافحة المسبقات الأكثر رواجاً التى سبق أن أثارت يقظة الوعى القانونى فى أوربا القرون الوسطى وعياً قانونياً قادراً على تقديم إسهامه الأساسى فى ضبط القانون الدولى ، بفضل أحكامه الحامية لحقوق الإنسان وبفضل حبه للسلام الديناميكى القائم على العدل لبلوغ ذلك ، على الغرب أن يكف عن الامتلاك التعسفى للعقل الديكارتى ، والاطمئنان الذى يضفيه ، فى الوقت الذى يعزو فيه الشخصية الباسكالية ، التابعة أساساً والعاطفية ، لأى مجتمع آخر ، وخاصة الإسلامى .

وتعليق فانسان مونتاى البليغ عن أفكار رونان ، والعروض الإضافية العديدة التى كرست للدفاع عن الإسلام ضد المسبقات الغربية ، وثيقة الفاتيكان الخاصة بغير المسيحيين حيث شرعت الكنيسة فى نقد معظم الأحكام المغلوطة التى صدرت ضد الإسلام . لكن بإمكاننا مع ذلك التذكير بأن الإسلام ، فى منظار الوعى الغربى المشوه هو التعصب ، هو القدرية ، هو غياب التسامح ، هو رفض العلم ، حول جميع هذه التهم يستطيع المرء أن يستفيد من قراءة مارسيل بوزار فى إنسانية الإسلام ، وفانسان مونتاى فى مفاتيح الفكر العربى ، وموريس بوكاى فى التوراة ، القرآن والعلم .

أظهر هؤلاء المؤلفون الفلاسفة وغيرهم تعاطفاً كبيراً مع الإسلام وخاصة

فولتير الذى حاول أن يستخلص منه المثل الإنسانية ، لشجب الحكم المطلق وعدم التسامح اللذين كانا حينذاك فى فرنسا نظام حكم شجباً عنيفاً .

حتى أن مؤلفاً غير ثورى بالمرة مثل مونتسيكو حاول أن يمرر أفكاره السياسية الإصلاحية تحت حجاب شرق زائف ، عندما كتب الرسائل الفارسية .

ومن الحق أن يقال ان بعض الكتاب المشهورين الممتازين قد حاولوا الإقرار بمزايا الإسلام ـ فلم تلق محاولاتهم نجاحاً كبيراً ، مما انفك جمهور القراء يصل كل شىء تقريباً عن النبى وعن دينه الملهم غالباً بالمبادىء النصرانية ، وعن الحضارة المنيرة التى اتفق بها نفوذ واسع فى الحضارة الغربية[1] .

هذا النموذج يعرض الثقافة الإسلامية بصورة علمية وبشكل يؤثر عقلانياً فى الرأى العام المثقف الأوربى . ولكن الواقع كان غير ذلك . فمعظم العلماء ورجال الثقافة فى العالم الإسلامى وأقاموا فى الغرب ينتمون إما إلى النخبة المتأثرة بالغرب التى كانت لا تعرف جيداً ثقافتها الخاصة التى انقطعت جذورها العميقة عنها ، وإما إلى فئة الباحثين الدينيين الورعين الذين كانوا لا يعرفون حقيقة العصر ومشاكله واكتفوا ببناء مسجد ونشر طريقة صوفية .

والواقع أن هناك كتاباً معاصرين يعتمدون أحياناً بدافع البرهان على التجديد الذى أحدثته النهضة فى بلادهم إلى التنكر لماضيهم بالذات ، إما عن طريق اشارتهم إلى بعض جوانب تراثهم الغامضة ، وهذا موجود فى كل تراث وإما عن طريق استهانتهم بفلسفة الفترات السابقة وبإنتاجها الفنى . وهذا معناه أنهم يريدون ضرب الماضى بالاستهانة به والتحقير بالبحث عن مواطن « اللا عقلية فى الفكر العربى » وما يشابه الطرف والملح .

---

(١) يراجع مجالى الإسلام ـ حيدر بامات (ج. ريفوار) ترجمة . عادل زعيتر ١٩٥٦ م الحلبى .

الاستشرق الصليبى والصراع مع الإسلام :

وذلك حينما اقتحم الغرب الاستعمارى الشرق ـ بأسلوب غير حضارى ـ بجحافل الصليبية ـ وجده معينا لا ينضب من الإثراء المادى الأوروبى ومشاريعه الاستعمارية ، كما وجده أيضاً ذا حضارات قد شكلت ملاذاً من الأزمات الروحية والثقافية التى تهب على أوروبا بين فترة وأخرى من باب الأندلس ، انفتح واسعاً على أوروبا فظهرت ملامح الفكر الفلسفى منذ ١١٠٠ متمثلة فى أغانى « التروبادور » والشعر الوجدانى ... وفلسفة ابن سينا الإلهية وخاصة كتابه « رسالة فى العشق » وفلسفة الرازى ... .

كما أن ما جنته فرنسا من « غنائم » فى الحروب الصليبية التى تعتبر فى علم التاريخ ، بداية للسياسة الاستعمارية فى فرنسا فى الشرق .. من مخطوطات ومكتبات وآثار وتحف فنية غَيَّر إلى حد كبير طابع تصورات الأوربيين عن الشرق وقرب الصورة الشرقية من الواقع ، وحلت المعلومات الصحيحة فى ميدان الجغرافيا محل التصورات المفعمة بالخيال . وكان الاحتكاك المباشر بالشرق طيلة فترة الحكم الصليبى للشاطىء الشرقى للمتوسط ، مساهماً فى معرفة الشرق على حقيقته وعلى كنوزه وثقافته . وأنه ليس بالمتعة والجنس وعالم المتناقضات .

ومما زاده عجباً إلى حد الألم فشل الحروب الصليبية فى السيطرة على الشرق ، سياسياً وعسكرياً ، وما كان ليتأتى للغرب بعد الوقوف على حقيقة الشرق ، وفشل الحروب الصليبية أن يكون أميناً على نقل صورة الشرق ، وكيف يكون أميناً وقد تعلم منه درساً فى الهزيمة جعله لا يستطيع نقل صورة غير التى نقلها ، صورة سلبية ساهمت فى تشويه الشرق المسلم ، ويرى عجز

الغرب واضحاً أمام الشرق وثقافته ، فولد لديه الشعور بالنقص والعجز عن إنتاج ثقافات روحية أمام ميول الغرب المادية[1] .

وفى أعقاب الحروب الصليبية اتسمت علاقة الغرب الاستعمارى بالتناقض والازدواجية ، فمن جانب ظهر الموقف الإيجابى من الفكر الفلسفى والعلمى والجمالى الإسلامى ومن جانب آخر ظهر الموقف العدائى من الإسلام كدين ونظام اجتماعى وأخلاق فدخلت الثقافة الإسلامية عصر النهضة بوصفها ركناً أساسياً من أركان النهضة الثقافية سواء فى تأثير إنجازاتها العلمية والفنية المباشرة بوصفها الجسر الذى عن طريقه تعرفت أوربا على منجزات الحضارات الـ[illegible] مة وخاصة اليونانية ـ والرومانية ـ والإسلامية . وقد كرس تلك العلاقة الـ[illegible] بالإسلام ، دانتى اليجيرى وهو من أشد الاستشراق سوءاً فى عمله الشهير « الكوميديا الإلهية » الذى جسد الروح الصليبية فيها وهى الملحمة الشعرية ـ الدينية المعبرة عن التصور المسيحى للعالم الأرضى وعالم الآخرة والتى مثلت الفكر المسيحى الفلسفى والجمالى لقرون طويلة وألهمت أعلام النهضة فى شتى مجالات الفن والأدب والفكر .

فقد أظهرت آخر الدراسات العلمية الأوربية مؤخراً أثر الإسلام ورؤيته للعالم الآخر وأثر العديد من المفكرين المسلمين (ابن عربى ، وابن سينا ، أبو العلاء المعرى ، ابن رشد ، ابن مسرة ، الغزالى ، الفرغانى ، وغيرهم) على فكر دانتى ، من خلال اطلاعه على الترجمات التى ظهرت فى عصره فى أسبانيا وخاصة كتاب (Liber scalae wher scalae) المتضمن للرواية الشعبية العربية ـ الأسبانية لمفهوم الآخرة . فقد عكس دانتى فى « الكوميديا الإلهية » موقفاً عدائياً من الإسلام والنبى محمد (ﷺ) مكرساً صورة الدين.

---

(١) الاستشراق فى الفن الرومانسى الفرنسى ص ٣٠ ـ د. زينات بيطار .

المسيحي « الحق » ، معتبراً الإسلام « كفراً » وهرطقة ، وهو أول من قارن صورة القديس فرانسوا الأسيزى « المؤمن » الحقيقى وصورة السلطان المسلم « المتعجرف » والكافر ، مثنياً فقط على السلطان صلاح الدين الأيوبى حيث برزت صورته إيجابية فى مجمل نظام الدولة الإسلامية . وهذا الموقف هو نتيجة مباشرة لفشل آخر الحملات الصليبية على الشرق الإسلامي التى تمت فى زمن شباب دانتى .

إن تأثير دانتى على نشوء الثقافة القومية الإيطالية ، وعلى منظومة الفكر الأوربى للنهضة ، شمل أيضاً تأثيره على مجمل فنانى عصره فى علاقته بالإسلام ديناً وفلسفة . وتأثير دانتى والكوميديا الإلهية لم يفقد وزنه حتى القرن التاسع عشر ـ إذ تعتبر الكوميديا الإلهية أحد المصادر الأساسية التى لجأ إليها الرومانسيون كمعين فنى وإبداعي ولا سيما أن ترجمتها إلى اللغة الفرنسية قد ظهرت فى فرنسا عام ١٨١٣ أى إبان فترة الحماس لدراسة تاريخ القرون الوسطى المسيحى والأوربى مع تطور علم التاريخ فى فرنسا آنذاك[1]

كان غيوتودى باندونى ، رائد إظهار الموتيف الشرق الإسلامي فى فن التصوير الأوربى ، وهو معاصر دانتى ومؤسس النهضة فى فن التصوير الإيطالى والأوربى بشكل عام ، والذى ارتبطت باسمه إنجازات إبداعية شكلت منعطفا تاريخيا فى تطور الصورة التشكيلية الأوربية وتقنيتها . فمنذ بداية حياته الفنية أدخل صورة الشرق المسلم فى بنية اللوحة التاريخية فى فن التصوير على الجدران ، Peinture Vonumentule والمستقاة من الإنجيل والتوراة وحياة الرسل والقديسين المسيحيين . وفى جدارياته التى زينت كاتدرائية كابيلا

(١) الاستشراق فى الفن الرومانسى الفرنسى ص ٣٣ ـ د. زينات بيطار ـ سلسلة ـ عالم المعرفة ١٥٧ .

باردى فى سانتاكروتشيه (فلورنسا) عكس غيوتو روح العصر التى ميزت الثقافة الإيطالية فى القرن الرابع عشر ، والقائمة على مقومات الأيديولوجية المسيحية المتزمتة لخضوعها المباشر لسلطة الكنيسة وسياستها وللإقطاع . وقد صور فى حينها فصولاً من حياة القديس فرانسوا الأسيزى الذى شارك فى الحملة الصليبية الخامسة ، وزار مدينة دمياط ، وكما تروى الأسطورة الشعبية المسيحية فإنه قابل السلطان الكامل لإقناعه باعتناق الدين المسيحى وبهذه الجداريات كرس غيوتو الصورة النقدية العدائية للإسلام التى بدأها دانتى (فى الفكرة) حيث تبدو فى جداريته صورة السلطان الكامل المتغطرس ، الدنيوى وأمامه يقف القديس فرانسوا الأسيزى المتصوف ، المتواضع ، المؤمن الذى لا تحرق جسده النيران لعمق « إيمانه » و« زهده » الروحى الطاغى على إحساسه بجسده والعالم الخارجى ، هذه الصورة الإيقونغرافية تتضمن الدلالة على أن الدين المسيحى هو الدين الإلهى القائم على إيمان حقيقى وتضحية بالنفس ودعوة المسلمين للتخلى عن معتقداتهم لبطلان ألوهيتها واعتناق المسيحية . وهذه الصورة ليست إلا انعكاساً للأيديولوجية المسيحية فى القرون الوسطى فى موقفها العدائى من الإسلام من حيث المضمون . أما من حيث الشكل فقد كرس غيوتو فى فن التصوير التاريخى ـ الدينى بواكير النهضة ، ووفقا لمبدأيه اللذين قامت عليهما ثورته فى فن التصوير : مبدأ محاكاة الواقع ، ومبدأ منح اللوحة الطابع المحلى أو « الصبغة المحلية »[1] .

صورة الإنسان الشرقى (زيا وسحنة عرقية) الذى يقطن فى منطقة جغرافية كانت أرضها مسرحا لأحداث التوراة والإنجيل وأبطالهما . من هنا درجت العادة فى تصوير عناصر الطبيعة والعمارة الشرقية (من نباتات

---

(١) نفس المرجع ص ١٦٠ .

وحيوانات وطيور كالجمال والنخيل والطواويس والأسود ، والقردة والتنين وغيرها من الحيوانات الأسطورية المرتبطة بأرض الشرق والمتجسدة فى فنونه) فى فن تصوير بواكير عصر النهضة فى أعمال تلامذة غيوتو وجيل الفنانين الذين تأثروا بثورته الفنية (ستيفانودى ريفيو جنتيلودى فابريانو ، نانى دايتشى ، بوتيتشيللى ، فيليبنوليبى ، ساستيا فرايياتو إنجليكا وغيرهم) وقد انتشر النزوع نحو إدخال العناصر « الشكلية » الشرقية الإسلامية فى تصوير الموضوعات التاريخية الدينية فى مختلف المدارس الفنية الإيطالية لعصر النهضة (فلورنسا ، أومبريا ، رافينا ، روما ، جنوا)[1] .

يبقى السؤال : إلى ماذا استند فنانو هذه المرحلة فى مسألة محاكاة الصورة الشرقية الواقعية ؟ فى الحقيقة لم يكن لدى الفنانين آنذاك إمكانية لزيارة الشرق الإسلامى ومعاينة صورته الواقعية والحقيقية . فاعتمد معظمهم على كتب الرحالة والحجاج والمبشرين والقديسين ، التى كان يرافقها فى بعض الأحيان وصف وخرائط جغرافية أو رسوم توضيحية للأماكن المقدسة وأنماط العمارة والسحنة العرقية والأزياء ، إضافة لذلك هناك التجار المسلمون الذين كانوا يؤمون موانىء إيطاليا حيث تسنح الفرصة للفنانين لتصويرهم وشراء بضائعهم ، فضلا عن تجارة الأدوات والنتاج الحرفى الفنى والتزيينى (Les arts dearatifs) التى شكلت مصدرا أساسيا لمحاكاة الصورة الفنية والأسلوب الزخرفى الإسلامى ـ الأرابسك . لذا كانت الصورة الشرقية فى أعمالهم مجتزأة وتزيينية فى أغلب الأحيان .

وفى القرن السابع عشر وفى فرنسا كانت فاتحة علاقة جديدة و« منهجية » بالشرق إذ أسفرت النجاحات العلمية والفنية ـ فى الثقافة الأوربية ، وارتباط

---

(١) نفس المرجع ص٣٤ .

المصالح السياسية الأوربية بالشرق المتوسط عن دخول « المسألة الشرقية » حيز الهموم العلمية الأوربية . فافتتحت أقسام للدراسات الشرقية فى العديد من الجامعات الأوربية (هولندا ، إيطاليا ، إنجلترا ، فرنسا) وبدأت عملية رصد ودراسة الحضارة الشرقية القديمة والمعاصرة تتخذ الطابع العلمى الاستقصائى من أجل النجاح فى التوغل فى البنى الروحية والمادية للمجتمع الشرقى بغية السيطرة عليه . كما باتت دراسة الشرق مهمة رسمية حكومية ـ ومؤسسية ـ تتناحر الدول الأوربية فيما بينها على تطويرها بعد أن حلت مقاييس السياسة الاستعمارية محل المقاييس الدينية فى محور العلاقة بالشرق الإسلامى .

وسجلت هذه الحقبة التاريخية نجاحا لفرنسا فى نيل امتيازات واسعة من الدولة العثمانية أعادت لها موقعها التجارى فى موانىء المتوسط بعد أن حصل الملك فرانسوا الأول عام ١٥٣١ من الباب العالى على حق السيطرة على التجارة فى حوض المتوسط فانفتحت مدن أسطنبول وبيروت ودمشق وصيدا والقدس والقاهرة أمام جحافل التجار والحجاج والمبشرين والإرساليات والبعثات الدبلوماسية والعلمية والتى غالبا ما كان يرافقها الفنانون . ارتبطت منذ ذلك الوقت مصالح فرنسا الاقتصادية والسياسية بهذا الجزء من الشرق ـ أى الشرق الإسلامى ـ الولايات العثمانية وإيران . لذا حصرت كل جهودها العلمية والثقافية وجندت مختلف الطاقات الدبلوماسية والمؤسسية لتعزيز امتيازاتها فيه . التشكيلى ، والموسيقى ، والفكر الاجتماعى ـ الفلسفى ، وبحلول نهاية القرن الثامن عشر تشكلت مجموعة من الصور والأفكار والقوالب الفنية الاستشراقية نستطيع حصرها فيما يلى :

١ ـ إنشاء المكتبة الشرقية الملكية بإشراف الملك لويس الثالث عشر وريشيلو ، ومن ثم رعايتها من قبل الملك لويس الرابع عشر وإغنائها

بالمخطوطات ، والتحف والكتب ، والمنمنمات والنقود وشتى النتاجات الفنية التي كونت الأساس للدراسات الشرقية فى فرنسا فى أواسط القرن السابع عشر . وظهور الترجمات للمخطوطات القبطية والسريانية والعربية ، والعديد من كتب التاريخ التركي المعاصر (٢٥ كتابا عن تاريخ تركيا ، وترجمة القرآن ، وكتب يوميات ومذكرات التجار الرحالة والدبلوماسيين ، ونخص بالذكر كتب . ف برنيه وج . تافرنيه ، وشاردان) وقصص ورسائل القناصلة والسفراء الفرنسيين فى تركيا ، والأمير سيزى ، والماركيز نواستيل بشكل خاص ، الذين صارت مؤلفاتهم مصادر إلهام أدبى للعديد من أعلام الأدب الفرنسى (راسين ، موليير ، كورنى ، وغيرهم)[١] .

٢ ـ هذا وقد غزا (الموتيف) الشرقى ـ التركى والإيرانى الأدب فى القصة والشعر و « التراجيديا والكوميديا » (١٠ قصص فى موضوعات تركية ، وعرضت خمس مسرحيات « بموتيف » تركى نذكر منها مسرحية « بايزيد » و « روكسانا » لراسين ، و « السيد » لكورنى وسليمان أغا و « البورجوازى النبيل » لموليير) وهى تعتبر ثمرة استشراق القرن السابع عشر الفرنسى التى كللت جهود المؤسسة الاستعمارية الفرنسية بموسوعة « المكتبة الشرقية » لدير بمليو عام (١٦٩٧ ـ ١٦٩٩) التى قدمت مسحاً لتاريخ وجغرافيا وأخلاق وعادات وآداب الشرق الإسلامى ، وقد تضمنت تصورات سطحية أولية متشبعة بالمفاهيم اللاهوتية للقرون الوسطى المميزة للفكر المسيحى الأوربى فى عدائه للإسلام كعقيدة وفكر سياسى واجتماعى . وبالإضافة إلى ظهور ترجمة كتاب « ألف ليلة وليلة » (١٧٧٤ ـ ١٧١٧) لغلالان ، وبها تكرست مجموعة من « الكليشهات » أو الستريوتيب عن

---

(١) نفس المرجع السابق .

الشرق الإسلامي وضعت المسلم بشكل عام في إطار من المعادلات الأخلاقية والاجتماعية تتجمع وتتركز حول الشرق « الدموى ، المضحك ، الساخر ، الساذج ، الميال إلى الانفعالية والخفة والطرب ، المتعصب دينياً ، المادى والحسى » . وأدت إلى تأطيره فى شتى أنواع الفنون : الكوميديا ، الأوبرابوف : الدراما ، نذكر منها (« أركان محمد » ، « حجاج مكة » ، « أركان هلة » ، « سليمان الثانى أو الثلاث سلطانات » ، « قافلة القاهرة » وغيرها) . كما تظهر فى الأنواع الفنية السائدة : البروتريه صورة الحياة والبيئة و « العاريات » والمناظر الطبيعية الصامتة . وفى كل المدارس الفنية السائدة فى فرنسا آنذاك : الأكاديمية ، والتسجيلية ، والواقعية والروكوكو[1] .

وكما جذب أعلام فن التصوير الفرنسى للقرن الثامن عشر (أورواثو ، فواغونار ، بوشيه ، لانكريه ،لوبرنس ، كارل فان لو ، أميدى فان لو ، ليوتار ، فان مور ، أفيد ، باروسيل ، ميللنغ ، فيفرى وغيرهم) .

فى هذه الحقبة من تاريخ الفن الفرنسى لوحظ النزوع نحو الموضوعات السطحية والحسية والمسلية ، الخالية من أية منفعة أخلاقية أو دينية أو وطنية ، والابتعاد عن الأسس الجمالية التى قام عليها الفن الكلاسى والموضوعات الدينية والتاريخية فظهرت اللوحات والأعمال الفنية القائمة على مبدأ « الفن للمتعة » . و « الفن المسلى » و « الفن للحياة » والتى حاولت ارضاء الذوق الفنى للنخبة فى الميل نحو الخفة والطرب والاغتراف من مباهج الحياة . فسادت الألوان الشفافة الزاهية والعجينة اللونية المرنة ، وحلت الخطوط الخفيفة الرشيقة مكان الخطوط الصارمة والجافة الكلاسية . كما حلت الموضوعات التى تمثل حياة القصور وحفلات « الرقص » و « الغناء » و « الصيد »

---

(١) نفس المرجع السابق .

والموضوعات الحسية المثيرة فى أعمال فنانى الروكوكو « بوشيه » فراغونار ، لوبرنس ، لانكريه ، وغيرهم . كصور « المحظيات » و « الغانيات » و « العاريات» وصور حياة الخلاعة والترف وكونه ممثلًا للشرق[1] .

إن رؤية الشرق الإسلامي فى الصور الفنية الشرقية التى طرحها ممثلو فن عصر الروكوكو هى فى الحقيقة رؤية للذات الغربية فى استجابتها لنوازعها الداخلية ولمنظومة القيم والفكر السائد فى فرنسا آنذاك . لذلك التفت صور عصر الروكوكو الاستشراقية حول موضوعات وصور فنية شرقية محددة ، مختارة ومنتخبة من الشرق لاتمثل الشرق وحسب وإنما تمثل الغربى : صور حفلات « الرقص » و « الغناء » و « الموسيقى » ، وصور « الحريم » والمحظيات الغربيات فى زى السلطانات الشرقيات ، وصور « العشق » و « الحب » وصور الحياة والبيئة الشرقية التى ترضى نزوع الغربى نحو الاستعراضية ، والحسية والأبهة ، والفخامة ، والاحتفالية ، فقد غصت الصالونات الفنية الرسمية منذ عام ١٧٤٢ ـ ١٧٤٣ حتى نهاية القرن الثامن عشر بالعديد من اللوحات والبورتريهات الاستشراقية التى تصور مدام بومبادور فى « دور السلطانة الخارجة من الحمام » و « السلطانة تشرب القهوة » و « السلطانة وجواريها » و « السلطانة فى الحديقة » و « السلطانة فى السراى » . بريشة الفنان كارل فان لو ، وكذلك صورة « الأميرة مارى كونفترى فى الزى التركى » بورتريه « ماريا أوليدا » الفرنسية فى زى تركى للفنان ليوتار ، ولوحة أميدى فان لو « مدام دى بارى » فى مظهر سلطانة وصور « السلطان العاشق » ، و « السلطان فى الحديقة » وغيرها من اللوحات التى تصور جلسات شرب القهوة والشاى ، وحفلات الرقص

---

(١) نفس المرجع السابق

والغناء بالزى التركى ، فضلًا عن دخول أسلوب الأرابسك الفنى فى بنية الديكور للعمارة والأثاث والخزفيات ، بحيث فرضت الموضة الشرقية ـ التركية بشكل أساسى نفسها على الواقع الفنى للعصر مما دفع بنقاد وباحثى تاريخ الفن لعصر الروكوكو إلى الاعتراف بأن « الموضة التركية ـ الإسلامية دخلت صلب العادات الاجتماعية للطبقة الارستقراطية من النبـــلاء والدبلوماسيين والفنانين الذين ساروا فى شوارع باريس «بالقفطان والعمامة » بحيث « بدت باريس وكأنها حى من أحياء القسطنطينية » بينما يقول الأخوة .

النفس المريضة لاتفرز إلا مرضاً :

لعل عقدة النقص .. والكبت .. والعدوانية .. والمعاناة التى سادت أوربا بعد ملاقاتها الإسلام فى دياره هى التى زجت بفرويد لبحثها .. وذلك هو مركب فرويد الدائم الذى أشار إليه : مانونى (Manoni) عندما حاول تحديد الضمير الأخلاق الغربى مؤلف سيكولوجية الاستعمـــار مستشهـــداً بـ « عاصفة » شكسبير ، واجه بروسبير (ممثل الغرب المسيطر) وكاليبان (رمز المسيطر عليه)[1] .

النزاع بين الرجلين ، بين العالمين اللذين يمثلانهما ، تلخصه تلخيصاً تراجيدياً هذه المسبة العميقة الدلالة التى يوجهها بروسبيرو إلى كاليبان :

---

(١) الإسلام اليوم ـ مارسيل بوازار ـ اليونسكو ملحق بروسبيرو وكاليبان ـ الحبيب الشطى ص٣٣ .

« لقد اغتصبت ابنتي » يسقط بروسبيرو على كاليبان جميع الخطايا ، جميع المصائب التي تكبل ضميره والتي كبتها .

كذلك حافظ الغرب ، على امتداد تاريخه ، وفي وعيه الجماعي ـ على صورة آثمة للإسلام ، صورته هو الخاصة ، صورة الإسلام المشوهة ، تذكر تذكيراً غريباً بالمظاهر الخادعة بـ « مغارة أفلاطون » . الغربيون المحافظون يقولون بأن الغربيين استبطوا بطبيعة الحال القيم اليهودية ـ المسيحية التي غدت بذلك ، وفي الوعي الجماعي تبريرات ضمنية تفسر كثيراً من ألوان السلوك العصية عن التفسير واللاعقلانية في الظاهر ، وهكذا ففكرة الشعور بالذنب راسخة عند الغربيين وتشكل أساساً أساس رؤيتهم للعالم والإنسان بحيث باتت أحد المبررات الضمنية الأشد قوة التي تبرر المسبقات والتصرفات حيال « الآخر » المذنب هو بطبيعة الحال « الآخر » ، وفي قضية الحال ، الإسلام ، المسلمون والدول الإسلامية .

بإمكاننا ، في هذا الصدد ، الاستشهاد المفيد بأرنست رونان الذي ألقى خطابه الافتتاحي في الكوليج دوفرانس ، حول « نصيب الشعوب السامية في تاريخ الحضارة » في ٢٣ فبراير ١٨٦٢ ، يلاحظ « فانسان مونتاى » بأننا نعيد قراءة هذه السطور اليوم بذهول : « في هذا الوقت المناسب ، الشرط الأساسي لتمكين الحضارة الأوربية من الانتشار هو تدمير كل ما له علاقة بالسامية الحقة ، تدمير سلطة الإسلام الثيوقراطية . لأن الإسلام لا يستطيع البقاء إلا كدين رسمي ، وعندما يختزل إلى وضع دين حر وفردي ، فإنه سينقرض ، هذه الحرب الدائمة ، الحرب التي لن تتوقف إلا عندما يموت آخر أولاد إسماعيل بؤساً أو يرغمه الارهاب على أن ينتبذ في الصحراء مكاناً قصياً . الإسلام هو النفي الكامل لأوربا ، الإسلام هو التعصب ، الإسلام هو احتقار

العلم ، القضاء على المجتمع المدنى ، إنه سذاجة الفكر السامى المرعبة ، ضيق الفكر الإنسانى ، يغلقه دون كل فكرة دقيقة ، دون كل عاطفة لطيفة ، دون كل بحث عقلانى ، ليضعه أمام حشو سرمدى :

« الله هو الله . المستقبل إذن لأوربا ولأوربا وحدها ، ستفتح أوربا العالم وتنشر فيه الدين الذى هو الحق ، الحرية ، احترام البشر ، هذا الاعتقاد القائل بأن ثمة شيئا ما إلهيا فى صلب الإنسانية » يضيف مونتاى بأن « كل تعقيب من شأنه إضعاف هذا النص الذى كان مؤلفه يحيا فى ظل الامبراطورية الثانية وسينتشر فى السنة التالية كتابه الرنان : حياة المسيح[1] .

يقول الحبيب الشطى :

لاشك ، أن هذا النص يلخص تلخيصاً باهراً كل الشعور بالذنب الغربى المسقط على الإسلام ، كبش الفداء ، الذى تقدم عنه صورة مشوهة تشويها عميقا ، وفوق ذلك يمكننا أن نقول دون اعتراض بأن الغرب ، عندما حاكم الإسلام ، توقف غالبا عن أشكال ديننا الخارجية ، عند بعض المظاهر ، وهكذا فإن الغربى العادى لايمشى أبداً أبعد من تعدد الزوجات ، من الحجاب ، من عقوبة السرقة وعقوبة الزنا ، وهذا ما يمنعه من فهم جوهر ومبرر المؤسسات الإسلامية .

واجب علماء الشرع المسلمين أن يعرفوا الرأى العام العالمى بهذه الحقائق المجهولة ، جهل هذه الحقائق هو وحده سبب النيل من سمعة الإسلام والمسلمين والحكومات الإسلامية . من الواضح أن هذا النيل من الإسلام وهذه الصورة

---

(١) نفس المرجع السابق .

التى يلبسه إياها الوعى الغربى ، لم يتحققا عفويا ، فهما ليسا من وحى بعض المستشرقين والمؤرخين وحسب ، بل ومن وحى هواجس الغرب الاستعمارية والاستيعابية التى تحرص أيضاً على أن تخلق عند الشعوب غير الغربية بعض مركبات النقص والتبعية .

وهكذا فكل من يناضل ضد الإسلام يكسب تعاطف الغرب . تحليل الوقائع التاريخية التى قادت المجتمعات غير الغربية إلى طريق التغريب يتطلب وقتا كبيرا جدا ، لكن بالإمكان مع ذلك الاكتفاء بتوضيح أن الدافع إلى التغريب هو غريزة المحافظة على البقاء ، ذلك أنه لابد من امتلاك أسلحة حديثة لانقاذ استقلال البلد ، لكن الأسلحة الجديدة تتطلب تعليما جديداً .

بالتأكيد ، أسهم جهد التغريب فى قلب أوضاع المجتمعات غير الغربية فهو يتطلب عادة ذهنية محولة ، تمثل إنسانية جديدة بإمكانها أن تفضى إلى محو شخصية المجتمعات المعنية ، التقنية الغربية هى فى الواقع منتوج فكر وفلسفة حياة غربيين تحديداً ، وهكذا نطرح مشكلة الإنسانية الغربية فى مواجهة العالم غير الغربى التى هى بصدد غزوه[1] .

لكن من اللائق جعل الإنسانية الغربية غير راغبة فى تدمير الحضارات غير الغربية ، وخاصة الإسلامية ، بل فى لقائها لتبلغ معا إلى مصاف نزعة إنسانية كونية ، لأن الإسلام ليس فى الواقع دينا فقط ، بل هو أيضا نمط حياة حضارة .. ثقافة ، إذا تبنينا أحد أفضل تعارف الثقافة ، الذى أعطاه تيلور الذى عرف الثقافة كـ « كل مركب ، الفن ، الذى يشمل المعارف ، المعتقدات القوانين ، الأعراف وجميع التصرفات والعادات الأخرى التى اكتسبها الإنسان باعتباره عضواً فى المجتمع » .

---

(١) نفس المرجع السابق .

مفكرو عصر النهضة وتحرير معرفة الشرق من رؤية الاستشراق الاستعماري :

فى نهاية القرن الثامن عشر وفى فرنسا ظهر الاستشراق كعلم متكامل قائم على دراسة آثار الحضارة الشرقية المادية والروحية بل يشمل علم الاقتصاد والتاريخ والجغرافيا والسياسة والآداب والأديان والفلسفة .. الخ ، وكان هذا إيذاناً بظهور علم الاستشراق الذى ظهر معه مفهوم « ثقافة الشرق » فى مقابل مفهوم « ثقافة الغرب » ثم ازداد ازدهاراً واتساعاً مع بروز التخصص المعرفى فى مدارس الاستشراق الغربى ، انطلاقاً من مبدأ تركيز مصالح الغرب الاستعمارية والتجارية ـ فبرز مع إحكام سيطرة بريطانيا الاستعمارية على الهند والشرق الأقصى ، وظهر فى فرنسا مع العلاقات الثنائية بين الباب العالى العثمانى منذ القرن السادس عشر الميلادى .. وفى عام ١٨٤٤ انفتحت أبواب مصر أمام الخبراء الفرنسيين بعد توقيع محمد على باشا والى مصر واتفاقية التعاون مع فرنسا .. وقبل ذلك كله حملة نابليون ١٧٩٨ التى لعبت الدور الأساسى فى توجه الرومانسيين الفرنسيين نحو الموضوع الشرق الإسلامى « كلما تغلغلت المصالح الاستعمارية فى الشرق ازدهر الاستشراق » وبينما كان الاستعمار الأوربى يبحث عن منافذ الاستغلال فى الشرق ، كان المجتمع الغربى ولا سيما فى فرنسا قد وقع فى حالة من التخبط العشوائى والعجز عن إنتاج قيم روحية وثقافية جديدة تنسجم مع النظام الرأسمالى الجديد الذى أعقب النظام الإقطاعى الذى ساق أوربا إلى حرب صليبية .. وكان من أهم الأسباب التى أدت إلى حالة التخبط :

فشل الثورة الفرنسية فى تحقيق المثل والمبادىء والقيم الأخلاقية التى نادى بها فلاسفة عصر التنوير مثل مونتسكيو ، جان جاك رسو .. فولتير :

سقوط الإقطاع وتحقيق مبدأ سيادة الفرد والمجتمع :

تحرير الفكر من سيطرة الكنيسة

أدى هذا الواقع الجديد إلى تطور مفاجيء أربك الإنسان والمجتمع ، وكان ذلك التطور ، وملاحقته وفهمه عسيراً أدى إلى نوع من التخبط الفكرى والروحى أو ما عرف بأزمة الروح الذى أعيد معه طرح المسألة الدينية من جديد على مستوى الدراسة والبحث .. وعلى أثرها لجأ أعلام الفكر الأوربى إلى اللجوء إلى الحضارات القديمة علهم يجدون فى هذه الحضارات ما يقيل عثرة حضارة الغرب الناشئة مثل : هرور شبلنج ، جوته ، شاتو بريان ... الخ ، وكانت الحضارات الشرقية المرشحة أمامهم من حيث كونها تشكل تاريخ نفوذهم ومصالحهم وامتيازاتهم هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، شكل الشرق لديهم عامل جذب لأن هذا الجزء من العالم لم تكن قد دخلته التغيرات المادية الجشعة ، فلقد حافظ الشرق الإسلامى على طابعه التقليدى منذ القرون الوسطى وسيادة الإسلام بوصفه نظاماً لها وفكراً دينياً وحياتيا .. فهو مهبط الوحى ومهد الرسالات وموطن الشاعرية الصوفية ، والحياة الرعوية الحرة المثيرة للحرية وسعة الخيال .

من هنا أحدثت حالة التخبط الفكرى الأوربى ازدياد التطلع إلى الشرق ، وظهرت مرحلة انتقالية بين : استشراق نظرى تخيلى قائم على « منظومة الأفكار الدينية والغيبية » ، وبين الاستشراق الاستعمارى ــ الإخضاعى ــ ضد الشرق ــ الذى بدأ مع النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، أى مع دخول الاستعمار إلى الشرق الإسلامى فجاء استشراقهم مبنياً على جدلية : الثابت والمتحول ، والمتوسط والحديث ، والموضوعى والذاتى ، والكلى والجزئى .

ذلك ما كان من الاستشراق الاستعمارى فلقد ساهم فى ترويض الشرق لقبول الاستعمار وساهم فى تشويهه وتشويه الإسلام والرسول .

« أما مفكرو الغرب الذين رفضوا الواقع الأوربى المضطرب كانت لهم مواقف يحسبها التاريخ لهم فبعضهم أيد مبدأ حرية الشعوب ، والعدالة الاجتماعية كبايرون وشيلى وجوته ، وجيريكو ، وديلاكروا ، وبوشكين وفيكتور هيجو .. وبعضهم أظهر الدعم للسياسة الاستعمارية مثل ـ شاتو بريان ، ولامادتين ، وفرنيه » .

« وهناك من زار الشرق بصفة رسمية أو برحلة دبلوماسية كديلاكروا ـ غير أنه لم يؤيد السياسة الاستعمارية للشرق ، بل جاءت لوحاته ومقالاته النقديةحول الشرق مفعمة بالإعجاب والاحترام للمسلمات الأخلاقية ، والجمالية الإسلامية والعربية التعبيرى أو الإيحائى » .

لهذا بقى استشراق النهضة سطحياً ، شكلياً ، وتقنياً بحتاً ، وهو نتيجة لطبيعة ونمط-علاقة أوربا المسيحية بالشرق الإسلامى آنذاك .

فأوربا نفسها كانت عاجزة عن محاورة الفكر الإسلامى (الجمالى والدينى) وملاقاته على صعيد المضمون ، لسبب هام وأساسى يكمن فى طبيعة البنية النفسية والأيديولوجية الأوربية المشحونة بالعداء للإسلام وغير المهيأة فكرياً وعلمياً ونفسياً لاستيعاب الشرق الإسلامى بشكل موضوعى وحيادى .

فتمت محاكاة الموتيف ونسخه (شكلا) لينطق[1] .

---

(١) الاستشراق فى الفن الرومانسى ـ د. زينات بيطار .

استشراق الاستعمار ومسيرة الصراع مع الإسلام:

الاستشراق ، كمذهب علمي ، أوجده نابليون . نعرف كل ما قام به نابليون خلال حملة مصر وبعدها . فقد أبدى تآخياً مع المسلمين ، بل لقد زعم أنه هو نفسه اعتنق الإسلام ، لاشك أن رغبته فى تحسين التفاهم بين المسلمين والأوروبيين كانت صادقة بيد أنه لم يكن خالياً كلياً من الغرض . حلم نابليون ، أول الأمر على الأقل ، بكسب صداقة المسلمين ، لكى يواصل ، بفضل هذه الصداقة ، معركته ضد بريطانيا العظمى .

يبدو أن هذه العاطفة المزدوجة ، هذا الخليط من التعاطف النبيل والمصلحة السياسية الخفية ، قد طبع ، منذ البدء الاستشراق الذى تميز كفرع علمى مستقل منذ نهاية القرن التاسع عشر[1] .

ومع ازدياد أطماع الغرب طرأت تغيرات على مسرح الأحداث حتمت ضرورة دراسة الشرق بصورة أعمق ، والوقوف على جميع نواحيه الفكرية والسياسية والثقافية والدينية وعوائده ونظمه .

وكان الباعث على ذلك هو ما عرف باسم « المسألة الشرقية » أو توزيع تركة « الرجل المريض» والذى مازال مريضاً ، وقد كانت هذه أهم القضايا الحيوية أمام السياسة الأوربية فى ذلك الوقت حتى الآن ، وما بعد الآن ، التى تم على أساسها توزيع تركة الرجل المريض وإعادة تشكيل جغرافية العالم العربى بل والعالم الإسلامى وتقسيمه إلى مناطق نفوذ للاستعمار ، وإسقاط الخلافة

---

(١) الإسلام اليوم ـ مارسيل بوازار ص٣٥ .

العثمانية ، وإعلان الوصاية عليها وعلى العالم الإسلامي . لذلك حفزت تلك القضية أوربا إلى دراسة الشرق بصورة أعمق وفق ذلك المخطط الاستعماري المرسوم .

وعلى هذا تشكلت أهم أكاديمية للدراسات الشرقية عرفت باسم « اكاديمية الاستشراق » واتخذت دراسة الشرق : تاريخا ، وجغرافية ، وإنسانا ، ومصادر طبيعية ، ودينا ، وحضارة وثقافة وفكرا وعوائد ، ونظما ، وأعرافا .. الخ .. طابعا رسميا معترفا به من قبل أوربا ، ومن تلك القضايا تكون علم الاستشراق ليعمل وفق مخطط استعماري مدروس .

من هنا نستطيع القول بأن الخلفية التاريخية للاستشراق هي التي حددت مفهومه وأهدافه ونشأته فهو مصطلح يشير إلى الدراسات الغربية للشرق بأنواعه الثلاثة : الأقصى والأوسط والأدنى ، من حيث شعوبه ودياناته إلخ ، رغبة في اكتشافه لتطويعه لسياسة الغرب وخدمة لأهداف الاستعمار ، ومن قبيل خفيف الملاحظة نحب ان نشير إلى أن هناك ما يسمى « بالاستعراب » ونعنى به دراسة التراث العربي الإسلامي من قبل علماء الشرق السوفيتي ، فهؤلاء ليسو مستشرقين من حيث صحة إطلاق الوصف عليهم لأنهم ينتمون إلى الشرق ، لذلك أطلقنا وصف « الاستعراب » عليهم فهم مستعربون لتخصصهم في دراسة تراث الشرق العربي الاسلامي وأيضا لخدمة نفس الأهداف الاستشراقية ..

فأوربا المتحدة وريثة الامبراطورية البيزنطية التي عصف الاسلام بها أيضا فهي حقد دفين يقطر مرارة على الاسلام والمسلمين ، فوحد التاريخ بينهما ، وكذلك وحدت الأهداف بينهما في اقتسام نفوذهما على العالم الاسلامي ثم بتحقيق مطلب الوصاية عليه .

من هنا نستطيع أن نربط بين جماعة الاستشراق وجماعة الاستعراب بوحدة الدوافع والأهداف .. من أجل ذلك أطلقنا عليهم مصطلح الاستشراق من قبيل التغليب إذ لا فرق بينهما .

لقد صنع الاستشراق ــ وفق أساليبه ــ صورة للشرق يغلب عليها الطابع الخيالى « اليوتبى » صورة هى اقرب ما تكون إلى الخيال منها إلى الواقع ، تحوى عناصر الاثارة المتناقضة من متعة الجنس والحريم والغلمان إلى حياة مفعمة بالروحية : مآذن ومساجد ، ذلك ما استطاع الاستشراق أن يصور الشرق به ويطبعه فى ذهن الغرب العقلانى . وظلت هذه الثنائية المتناقضة التى يتميز بها الشرق قائمة فى ذهن الغرب لقرون طويلة .

ظهور الجمعيات الاستشراقية :

إن الازدهار الحقيقى للاستشراق والدراسات الشرقية فى القطاعين الرئيسيين ، وهما : العالم العربى ، والشرق الأقصى .. يعود تاريخه بالدرجة الأولى إلى عصر التركز الاستعمارى ، وبشكل خاص إلى السيطرة الأوربية على القارات « المنسية » فى أواسط القرن التاسع عشر ، ثم فى ثلثه الأخير ، ولكن سبقته مرحلة ظهور الجمعيات التاريخية ، وهى التى ازدهرت فيها الجمعيات الاستشراقية مثل :

- جمعية باتافيا ١٧٨١ .
- الجمعية الملكية الأسيوية ــ لندن ١٨٣٤ .
- الجمعية الأسيوية ــ باريس ١٨٢٢ .

الجمعية الأمريكية الشرقية ١٨٤٢[١]

مؤتمرات المستشرقين :

مؤتمر باريس ١٨٧٣

من ١٩١٤ ــ ١٩١٨ انعقد ستة عشر مؤتمرا .

* وفى مؤتمر مجمع فيينا ١٩٤٥ .
* مؤتمر اللغات الشرقية الذى انعقد فى باريس حتى حرب ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥[٢] .

من خلال تلك المؤتمرات وتلك الجمعيات تكونت جماعات المستشرقين* .

تقدم الغرب العلمى لا يغير معارفه عن الشرق :

يقول جرونباوم[٣] .

والغرب منذ أيام « هيرودت » ــ مؤرخ يونانى قديم ــ يسرح فى أوهامه ويمرح بخياله فى الشرق وأعاجيبه . نعم إنه كلما تقدمت المعلومات

(*) ولقد تكفل كتاب (المستشرقون) بقصص المؤتمرات والجمعيات والأكاديميات تاريخا ونشأة ، لذلك اكتفينا بالإشارة .

(١) المستشرقون ــ نجيب العقيقى جـ١ ــ دار المعارف .

(٢) نفس المرجع السابق جـ١ .

(٣) حضارة الإسلام : ترجمة الأستاذ عبدالعزيز توفيق جاويد .

الجغرافية اتسعت السعة المعروفة وتباعد القطر الحافل بالأعاجيب ، إلا أن الارتياد العلمي كان التفوق والابهام بحيث أبقى تلك الأحلام الأثيرة وراء غلالة من الجهالة .

وبعد ترجمة جالاند « ألف ليلة وليلة »[1] ١٧٠٤ — ١٧٠٨ أوجدت تيارا جارفا فى الفن والأدب والموسيقى والتصوير عرفت باسم « غرايب الشرق وبدائعه » وتركت صورة الشرق فى الغرب فى تلك البدايات على تلك العصور الخيالية لألف ليلة وليلة . وذلك هو عالم مزيج من الرومانسية والخيال ، وهكذا صُوِّرَ الشرق على أنه عالم الاسلام من تلك الصور الخيالية التى استقاها الغرب من خيال « الف ليلة وليلة » .

وهكذا كانت صور الشرق مزيجا من الفخامة والعنف والانطلاق المثير : من جانب عالم من المآذن والنقوش والفتن فى أجنحة الحريم ، ومن جانب آخر عالم من الرجال الغلاظ من سلاطين وأغوات وسيافين وحراس ، حيث تقطع الرؤوس وتدق الأعناق . وهذه التصاوير ترضى كما لاحظ الشاعر الألمانى « هانريش همانية » الغرائز الحسية المكبوتة ، كما أن النزعات ترضى المواطن الأوربى البورجوازى الذى يعانى من الكبت والرتابة والملل .

يقول فرنو[2] : وهناك من يتخيل الشرق فى بعض الأحيان بلادا أسطورية تغفو منتظرة عصا التقدم السحرية ، لتستيقظ من سباتها ، وهذه

---

(١) مجلة فكر وفن — عدد ٤٠ سنة ١٩٨٤ بحث الغرب فى مرآة الشرق (أرد موته هللر تصدر فى ألمانيا) .

(٢) يقظة العالم الإسلامي ف.و. فرنو — ترجمة بهيج شعبان .

الصورة ليست عديمة المعنى ، ولكنها مثقلة بكثير من الأوهام حول تقدم التقنية ، وضرب مثلا بمصر فى تقدم التقنية .

ثم نشأت الحاجة الى معرفة الشرق بصورة أعمق ، أولا فى القرن التاسع عشر ، كان الباعث على ذلك هو ما عرف باسم « المسألة الشرقية » التى شكلت إحدى القضايا الحيوية للسياسة الأوربية . وكان لابد ـ إذن ـ من الاشتغال بالشرق واكتشافه بصورة أعمق وفق مخطط استعمارى .

وحين كتب تاريخ الشرق أيضا بواسطة الأوربيين وفى عروضهم للشرق وتراثه بدأ عالم الاسلام ككتلة صامتة سلبية . وكموضوع يشغل الأوربيين فحسب ، وفى المقابل لم ينشأ عالم مماثل عن الغرب فى الشرق ، لم ينشأ علم الاستغراب .. فأوربا والغرب حتى نهاية العصر الحديث كانتا كما مهملا عند أهل الشرق ، هما جزآن غريبان عن « دار الاسلام » ولم يتم اكتشاف أوربا لدى العالم الاسلامى إلا تحت ضغط التهديد الاستعمارى للشرق ، وبعد تدخل أوربا المباشر كحضارة غازية فى مجال أفريقيا ومصر فى القرن الماضى . ومن الشعور المتزايد بفوقية الغرب التى فرضها على الشرق اتخذ منهجا ليؤكد فوقيته ودونية الشرق ، وذلك من خلال إبراز خصائص الشرق الذاتية المتهمة لديه ، وتلك كانت محوره فى اتهامه . بينما من المفروض أنه حين تتعرف الأمم والشعوب على نفسها من خلال التاريخ ومن خلال الدراسات المقارنة للحضارات وخصائص الشعوب المغايرة ، بمعنى أننا فى حين نقول : إن الصورة المغايرة هى التى تثير فيك الوعى بالذاتية والخصوصية ، على اعتبار أن الشخصية الذاتية تتكون عادة من خلال المغايرة ، بهذا المعنى ووفق هذا التصور لم يكن الشرق ذاته هو الذى أثار اهتمام أوربا منذ القرن التاسع عشر ، وإنما من أجل إثبات المغايرة وتعميق نظرية العرق التى تعنى تفضيل الشعوب الأوربية على الشعوب

السامية ، ومن خلال التعرف على أوجه المغايرة تكَوَّنَ مفهوما الشرق والغرب كمفهومين متضادين أو كطريقتين متغايرتين .

من هنا كان اهتمام الغرب بالشرق لتعميق فوقيته واقناع الشرق بدونيته . وعلى أساس منظور نظرية العرق التى تبنت « دونية الشرق » كانت صورة الشرق الخرافية أو « الميثولوجية » فى مقابل الوجه الآخر للعقلانية الغربية التى بدأت من القرن الثامن عشر فى خلق واقع اجتماعى بعينه ، وفى تطور معايير فلسفية وصور حضارية تتفق مع الدينامية السائدة فى الاقتصاد والتكنولوجيا الغربية ، فمن خلال التصوير « الرومانسى » أو « الحسى » للشرق صور الغرب نفسه كعالم عقلانى حصيف يرفض الأهواء ويعانى بطبيعة هذا الموقف من الكبت .

حين نتأمل قصة الحضارة الاسلامية من خلال المراجع العربية والاسلامية تهتز سريعا صورة العالم كما رآها الغرب .

فمن مكونات هذه الصورة على سبيل المثال أن « كارل مارتل »[1] قد أوقع الهزيمة بالمسلمين عام ٧٣٢م عند مدن تورز أو بوتيه وأنقذ الغرب من الدمار . ولكن حين نقرأ للمؤرخين العرب الذين سجلوا جميع المعارك بدقة وتفصيل لا يسعنا إلا أن ندرج هذا « الحدث التاريخى » تحت باب الاختلاق والخيال ، فليس من مصدر ما يورد اسم « تورز » أو « بوتييسه » « وبتركراسم » « وكارل هارمر » أو « كارل المطرقة » كما يقول عنه الطبرى

(١) قارن تعليقات وات فى كتابه : فضل الإسلام على الحضارة ، وقارن ما ذكره جرونيبام فى كتابه حضارة الإسلام ، والحلل السندسية للأمير شكيب أرسلان ، وحاضر العالم الإسلامى ـ لوثروب ستوارد ـ ترجمة عجاج نويهض .

وابن القوطية .. فلا يذكرون شيئا عن هذه المعركة . والأرجح أن مثل هذه الوقائع لم تكن بذات بال . فقد كانت مثال هذه الهجمات أو الغارات من الوقائع الجارية المألوفة .

لم يكن هناك إذن خطة للزحف على الغرب عبر الطريق الواقع بين تورز وبوتييه ، أما ما أعطى هذه الواقعة هذا الثقل فهو شئ آخر هو تقييم المؤرخين الغربيين الانفعالى أو العاطفى .

وساعد على ذلك أن الوقت الذى نهضت فيه أوربا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر أيضا بفضل ذلك التراث العلمى الذى خلفه العرب ، كانت دولة الاسلام فى مرحلة حاسمة من مراحل التراجع والانسحاب ، كان التغير فى موازين القوى قد بدأ بالحروب الصليبية ، واستمر حتى هزيمة الأتراك على أبواب « فيينا » فى هذه الحقبة بدأت قرون السكون فى ظل الدولة العثمانية ، لم يعرف عالم الشرق فى القرون التالية البحث الحر والاجتهاد والابداع ، والبحث عن المعارف الجديدة ، بل تحول التراكم المعرفى السابق إلى مجموع من الحقائق الأبدية الجامدة ، أغلقت ميادين البحث الحر بإغلاق أبواب الاجتهاد فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وأصبح العلم المتداول هو علم الأوائل ، وأما عن العالم الاسلامى فإنه فى خلال هذه الفترة نشأت حركات تجديدية حيوية . وحين نشأ الاهتمام المعرفى بالعالم الاسلامى ونشأ فى إطاره الاستشراق كان الشرق ذاته ، يغط فى نوم ، وعلى الرغم من الاحتكاك المتزايد بالغرب لم ينشأ اهتمام ما بمؤلفات الغرب وبتطوره العلمى والفكرى . فى ذلك الوقت كان العديد من المؤلفات العربية والفارسية والتركية العلمية والأدبية فى ترجمة اللغات الأوربية ،وفى المقابل لا تجد كتابا واحدا ترجم إلى أية لغة من اللغات الشرقية .

وعبر الحملة الفرنسية حدث شيء آخر ، دخلت الشرق العلمانية الأوربية وأفكار الثورة الفرنسية التى غزت أنحاء القارة الأوربية . ولعل هذا

هو الجديدالذى واجه الحضارة الاسلامية فى صورتها المتأخرة التى بدت للمثقفين الجدد فى الشرق كسر نبوغ الغرب وتفوقه ، بل اعتبرها الكثيرون الطريق الوحيد للتغلب على ميراث عصور الخمول المتعاقبة .

علم دراسة الا سلام ، كمذهب علمى أنشأه نابليون بونابرت وذلك أثناء حملته على مصر رغبة فى تحسين التفاهم بين المسلمين والأوربيين وذلك خدمة لمصالحه ومصالح فرنسا فى الشرق . كان نابليون يحلم بالصداقة مع المسلمين لكى يتمكن من متابعة معركته بنوع من تحالف القلوب ضد بريطانيا العظمى .. وهكذا اصطبغ علم الاستشراق منذ بدايته كعلم مستقل فى نهاية القرن التاسع عشر بالشعور المزدوج وهو مزيج من التعاطف الظاهر لتحقيق المصلحة السياسية .

نشأت عن هذا التيار الفكرى ، وعن هذه الرؤية للاستشراق المؤلفات الرئيسية لأهم المدارس الاستشراقية فى الغرب (فرنسا ، بريطانيا ، المانيا ، هولندا ، أسبانيا ، ايطاليا ، روسيا ، الولايات المتحدة[1] وكانت مساهمتها متعددة وخصبة ويميز خبير المكتبات اللبنانى يوسف أسعد داغر بين ثمانية عناصر إيجابية فى الدراسات العربية الاسلامية : دراسات الحضارات القديمة ، تجميع المخطوطات العربية فى المكتبات الأوربية ، إنشاء لوائح بالمخطوطات ، نشر مؤلفات عديدة مهمة ، إلقاء درس منهجى ـــ بهذه الطريقة ـــ على العلماء الشرقيين ، تنظيم مؤتمرات للاستشراق ، كتابة بعض الدراسات ـــ التى كثيراً ما تكون ناقصة ومغلوطة من الناحية اللغوية ، لكنها متماسكة

---

(١) راجع : الفكر العربى عدد ٣١ سنة ١٩٨٣ السنة الخامسة عدد خاص عن الاستشراق ـ التاريخ والمنهج والصورة ـ ، وعلى الأخص بحث الاستشراق فى أزمة ، دكتور أنور عبدالملك ـ ترجمة : د.حسين منيسى وكان قد نشر باللغة الفرنسية فى مجلة ديوجنس عدد ١٩٦٣ .

ودقيقة من حيث المنهج ـ وأخيراً ، فقد ساهمت هذه الحركة فى تنبيه الوعى القومى فى مختلف بلدان الشرق ، وفى تنشيط حركة النهضة العلمية واليقظة الفكرية » .

وهذا العمل نفسه كان مشبعاً إلى حد بعيد جداً بالمسلمات وبالعادات المنهجية وبالمفاهيم التاريخية ـ الفلسفية التى كان لها أن تحيط ، فى كثير من الأحيان ، نتائج الأعمال الدؤوبة وقيمتها العلمية وأن تؤول ، من الناحية الموضوعية ، بعدد كبير من العلماء المستشرقين الأقحاح إلى المواقع الفلسفية ـ السياسية التى يحتلها الفريق الآخر من العاملين .

كان هذا الفريق مؤلفاً من خليط من الجامعيين ورجال الأعمال والعسكريين والمؤلفين الاستعماريين والمبشرين والصحفيين والمغامرين ، الذين كان هدفهم يقتصر على الحقل المزمع احتلاله ، والولوج إلى أفئدة الشعوب من أجل تأمين انقيادها للقوى الأوربية على نحو أفضل .

يقول أنور عبد الملك

« إن الشرق والمستشرقين « موضوع » للدراسة ، موسوم بالغيرية ـ شأنه شأن كل ما هو آخر ، سواء كان « ذاتا » ، أم « موضوعاً » لكنه موسوم بغيرية تكوينية ، ذو طابع جوهرى كما سنرى على الفور ـ موضوع ـ الدراسة هذا يوصف ، كما يليق به ، بأنه سلبى ، لا يساهم فى الأمور ، ممهور بذاتية « تاريخية » ، فضلاً عن أنه فوق كل ذلك معدوم الاستقلال ، معدوم السيادة تجاه نفسه : الشرق أو الشرق الوحيد ، أو « الذات » التى يمكن التسليم بها ، فى النهاية القصوى ، هو الكائن المستلب ، المؤلين ، أى الذى إذا قيس بالنسبة إلى ذاته كان أمراً آخر غير هذه الذات ، إنه الكائن المطروح والمفهوم المحدد ـ والمفعول به ـ من قبل الغير .

يتبنى تصوراً جوهرياً لبلدان الشرق المدروس وأممه وشعوبه ، وهو شعور يتجلى عبر نمطية اثنية (عرقية) موصوفة سابقاً .

ثم يقول أنور عبد الملك :

يوصف بأنه « تاريخى » ، لأنه يعود إلى التاريخ السحيق ، وبأنه لاتاريخى ، لأنه يجمد الكائن ـ « موضوع الدراسة » ـ فى خصوصيته الثابتة التى لاتخضع للتطور والتحول ، عوضا عن أن يجعل منه ـ كسائر الكائنات الأخرى ، من دول وأمم وشعوب وثقافات ـ نتاجا أو حصيلة لمنحى القوى الفاعلة فى مجرى التطور التاريخى .

فيفضى الأمر هكذا إلى نمطية مبنية على خصوصية فعلية ، لكنها منزوعة من التاريخ ، ـ وبالتالى ، فهى تعتبر بمثابة الكائن المعطى الذى لا يمس ولا يقرب ـ تجعل من « الموضوع » المدروس كائنا آخر تكون الذات الدارسة بالنسبة إليه ذاتا مفارقة متعالية : إذ أن الانسان ـ « الانسان السوى » طبعا ـ هو الانسان الأوربى الذى عاش فى العصر التاريخى ، أى منذ العصور اليونانية القديمة . وهكذا يرى المرء إلى أى حد كان الارتباط وثيقا ـ من القرن الثامن عشر حتى العشرين ـ بين سلطوية الأقليات المالكة التى فضحها « ماركس » و« إنجلز » والمحورية البشرية التى نسفها « فرويد » وبين المحورية الأوربية ، فى ميدان العلوم الانسانية والاجتماعية ولاسيما تلك التى تتصل اتصالا مباشرا بالشعوب غير الأوربية[1] .

ويصدرون فى إثبات فوقيتهم من منهج حددوه لأنفسهم ظاهره الرحمة وباطنه العذاب حين يبدأون بدراسة الماضى الثقافى للأمم الشرقية وهو فى نظرهم : إن ماضى الأمم والثقافات الشرقية يشكل ، بالطبع ، حقل

---

(١) يراجع نفس المرجع السابق ونفس دراسة أنور عبدالملك .

الدراسات الممتاز : « فعندما يصار إلى التسليم ضمنيا بأن أزهى الفترات التى عرفتها بلدان الشرق تنتمي إلى الماضى « يصار إلى التسليم من هنا بالذات « إن انحطاطها أمر لا مفر منه » .

ويدرس هذا الماضى نفسه ، من حيث أوجهه الثقافية ـ ولاسيما اللغة والدين ـ المعزولة ـ فى نظرهم ـ عن التطور الاجتماعى»[1] .

وبعد أن يدرس التاريخ بوصفه « بنية » ، يعكس فى أفضل الحالات على الحاضر القريب . فيبدو هذا الحاضر بمثابة امتداد للماضى الذى كان متألقا وانطفأ . وهكذا بدلا من أن يكون التاريخ تأريخا يصبح أمرا غريبا مثيرا للاستهجان .

أما العمل العلمى الذى قام به علماء مختلف البلدان الشرقية ، فلا ينبس حوله ببنت شفة ، بل يتجاهل فى معظم الأحيان تجاهلا تاما إلا فيما ندر من الأعمال التى تسير باتجاه استشراق المراكز اللغوية . أما الباقى فيوصف بأنه لا قيمة له ويغمط حقه ، بينما يصبح التأخر المعزو للشروط التاريخية ، ولاسيما الاستعمار ، خاصة من الخصائص المميزة والمكونة للذهنيات الشرقية .

والمصادر المستعملة من قبل المستشرقين الغربيين التقليديين : تقارير الادارات الاستعمارية ، والبعثات الدينية الكاثوليكية والبروتستانتية ، إحصاءات وتقارير مجالس إدارة الشركات ، أخبار الرحلات .. إلخ ـ فهى مصبوغة صبغا شديدا بكل منوعات العرقية والعنصرية . ويتصف أكثرها اعتدالا بالغرابة وبالمنحى الأبوى . هكذا يدرك المرء أن هذه المصادر الثانوية ، رغم تقديمها لعدد من المعطيات الأخرى ، لا تصلح بأى حال من الأحوال لدعم عمل يتوخى البحث العلمى .

---

(١) يراجع : فقه اللغة العربية ـ د. لويس عوض .

هذه هى الخصائص الرئيسية للاستشراق التقليدى ، الذى مثل مجمل المنحى الاستشراقى حتى نهاية حرب « ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ » ، والذى مازال يحتل مركزا مرموقا حتى أيامنا هذه .

يرى إدوارد سعيد[١] : أنه أداة مذهبية لمجتمع متقدم يساعد على الحكم على مجتمع أقل تقدما من الناحية المادية وعلى مغايرته . وهو مزين بهالة المعرفة والتبحر . وهو بمركزه يستطيع أن يعمد إلى إعطاء صورة مشوهة عن الشرق . والشرق بهذا المعنى هو الرمز المضاد للغربى العقلانى والتقدمى ... وإن الشرق فى نظرهم : ليس حقيقة حضارية وإنما مساحة نشأت فى فكر العلماء ذوى الالهامات السيئة . لذلك لم يساهم نتاج المستشرقين فى تحسين تفهم الاسلام من جانب أو حتى فى إعادة تصويب الصورة التى انطبعت فى الرأى العام الغربى .

تتسم أبحاث الاستشراق فى هذه المرحلة عن الشرقين الأدنى والأوسط بالتناقض ، فمن ناحية تدفع الأهمية السياسية العالمية للمنطقة إلى التركيز على مشاكلها من وجهة نظر الاستعمار ، ومن الناحية الأخرى يزيد البعد المعرفى والوجدانى والخلفية التاريخية لدى الاستشراق عن المنطقة التى تزيد من صعوبة تناول تلك المشاكل .

واقتصر الاهتمام بقضايا الشرق على بعض فروع العلم المتخصصة فى المجالات التاريخية والثقافية واللغوية التقليدية ، هذا مع التزام هذه العلوم بوجهة النظر الأوربية ومفاهيمها . وظل إدماج المنطقة فى برامج الأبحاث العامة للعلوم الاجتماعية هامشيا وغير مرْضٍ .

---

(١) يراجع الاستشراق ـ ترجمة كمال أبو ديب ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت .

وفى الوقت الذى تحتل مفاهيم « التخلف واستراتيجيات التنمية » فى هذه الدراسات ، بؤرة الاهتمام ، فقل ما تتعرض للأسباب التى أدت الى طور التنمية الحالى . ومازال الجزء الغالب من الأبحاث متأثرا « بنظريات التحديث » التى ترى ان تغير القيم والمعايير والبنى الموروثة لايتم إلا تحت ضغط وتأثير النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الغربية الاكثر تفوقا . وتغفل دراسات التحديث هذه غالبا الأبعاد التاريخية لموضوع البحث ، وإن تضمنت خلفيتها النظرية مقولة أن البنى الدينية هي المسئولة فى المقام الأول عن نسق القيم والمعايير « المختلف » فى العالم الثالث . وتنتظم فى هذا الاتجاه تلك الأفكار التى تعتمد أساسا على أعمال « ماكس فيبر » ، والتى تحمل الاسلام مسئولية إعادة تطور وتنمية القيم والسلوكيات والبنى التى تبث الفاعلية فى الحياة الاقتصادية والتى ترشد الحياة الاقتصادية فى النظم الرأسمالية . ويجد هذا التراث العلمي ، الذى يرى فى الاسلام سبب الأسباب ترديدا مشوها له فى الكتابات السياسية اليوم .

ويغفل هؤلاء أن السيطرة الامبريالية والتفوق الاستعمارى قد لعبا دورا جوهريا فى التطور المتدنى لتلك المنطقة .

يعلق بيتر بافلكا بقوله[1] : لن يجد دارس العلوم السياسية الذى يهم بالبعد التاريخى ضالته فى هذه الدراسات . وتكفى بعض القراءات السريعة فى تاريخ الشرق لطرح عدد من القضايا التى لم تعالج حتى الآن . كيف يتفق على سبيل المثال الادعاء بأن الاسلام يعرقل التطور الاقتصادى والاجتماعي مع سيطرة النظم العربية فى القرون الوسطى على التجارة الدولية ؟ كيف حدث أن مصر العربية فى القرن التاسع عشر كانت ، إلى جانب اليابان ، البلد النامى

(١) يراجع : بحث لماذا تخلف الشرق ؟ الشروط التاريخية للركود والتطور — بيتر بافلكا — أستاذ العلوم السياسية بجامعة توبنجن — ألمانيا الغربية ، نشر فى عدد ٤٠ (فكر وفن) — ألمانيا الغربية .

الوحيد ، الذى حاول تشييد قاعدة صناعية مستقلة ؟ هل من الصحيح القول : إن الرأسمالية والامبريالية والاستعمار هي وحدها المسئولة عن المستوى المتدنى الحالى لتطور الشرقين الأدنى والأوسط ؟ هل هناك أسباب اقليمية مميزة لتخلف المنطقة أكثر أهمية من التفسيرات الدينية ؟ تختلف التفسيرات اختلافا كيفيا حول العوامل التى أدت إلى انهيار النظام العربى الاسلامي . يرى التفسير السياسى فى تفتت السلطة ولا مركزيتها ، وفساد الصفوة السياسية ، ونضوب الموارد الاقتصادية ، الأسباب الرئيسية للأزمة التى انتهت بالعجز عن مواجهة الخصم العثمانى . بعد عقود من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، تمكن الأتراك عام ١٥١٧ من غزو الدولة المملوكية . عانت الدولة العربية تحت الحكم العثمانى فى القرون التالية ، فترة من الانحطاط الاقتصادى والاجتماعي والحضارى ليس لها مثيل . وانتهت الفترة بنهاية القرن الثامن عشر لتصب بعد ذلك فى عملية من « التشويه المنظم » على أيدى القوى الأوروبية .

أولا : إن أعمال الاستشراق الأكاديمي الذى تبنى موضوعية الحقيقة التاريخية للاسلام كانت تقدم فى أكثر الأحيان برطانة علمية معينة يصعب على غير المتخصصين استيعابها .

ثانيا : إن غالبية الاستشراق العظمي تنتمي الى مراكز العلوم الاستعمارية فى ألمانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى وهولندا . وكانت الغاية التى يهدف إليها الاستعمار من إنشائه « هو تفهم العقلية الاسلامية على أحسن وجه لتسهيل إدارة الشعوب الاسلامية فى النطاق الاستعمارى » .

ثالثا : يقول أنور عبدالملك[١] : إن المستشرقين ابتداء من « رينان » إلى جولدسهير . إلى « فاكرونالد » إلى « جب » و« برنارد لويس » كانوا

(١) يراجع : الاستشراق فى أزمة ـ د. أنور عبدالملك ـ ترجمة : حسن قبيسى ـ الفكر العربى عدد ٣١ الذى سبق ذكره .

يعتبرون الاسلام « مركبا ثقافيا » يمكن دراسته بعيدا عن اقتصاديات الشعوب الاسلامية وخبراتها الاجتماعية ونظمها السياسية إلى أن جاء علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الذين اهتموا بالاسلام واتبعوا فى دراسته مناهج جديدة تعالج الأسلام كظاهرة دينية واجتماعية شديدة التعقيد ووجدوا كم أخطأ المستشرقون .

رابعا : يشهد تاريخ الاستشراق على أنه أسهم فى انتاج العداء للعرب وبالتالى أسهم فى استباحة عنصرية للوجود العربى كما ساعد ـ حين استطاع ـ على استلاب المعالم الحضارية والإسلامية سواء بخفضها أم بازدرائها[١] .

وهذا ليس انتقادا وإنما بنية تاريخية ، وحقيقة لم تعمل القوى الاستعمارية على إخفائها فى ذلك العصر .

كذلك ، ويمكن اتهام الاستشراق بافراز الانطباعات العرقية والامبريالية والمذهبية والمحافظة عليها وفى نفس الوقت مؤاخذته ايضا على رفض تحليل الأمور السياسية الحقيقية والمتعلقة بمشاكل الدول الاسلامية فى عصرنا هذا .

وفى الواقع ينبع الضعف الأساسى للاستشراق حاليا من تقوقعه فى أغلاله القديمة ، ومن هيكلياته المثقلة بالتقاليد الأكاديمية والتخصص المهنى الى أبعد حد ممكن . ومما يضاف الى ضعفه هو أن معارفه العلمية الصحيحة عن الاسلام والعرب يتراكم بعضها فوق بعض دون أن يعمل على نشرها . لذلك كان تأثير الاستشراق العلمى على الرأى العام الأوربى أقل .

يرى فكتور سحاب[٢] : أن المستشرقين المنصفين للحضارة العربية يمثلون ظاهرة هامشية فى الفكر الأوربى ولايمكن بأى حال من الأحوال أن تمثل موقفا سياسيا عاما ولا جزئيا ولا تمثل موقفا اجتماعيا أوربيا تجاه العرب .

---

(١) يراجع : الفكر العربى عدد ٣١ الاستشراق : التاريخ والمنهج والصورة ـ بحث الاستشراق ـ مشكلة معرفة أم مشكلة اعتراف بالآخر ؟ د. خليل أحمد خليل .

(٢) يراجع : الاستشراق العربى وهم أم حقيقة ـ عبدالحق الزموری ـ مجلة حوار ، عدد ٩ السنة ٣ .

الفصل الثانى

لماذا يعادى الغربُ الإسْلامَ

من أقوال الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

« فالعداء بين الاستعمار والاسلام عداوة تاريخية ، جغرافية ، نفسية ، وتلك هى أصعب العداوات وأعمقها وأعصاها على التوفيق والنسيان »[1] .

(١) الإسلام والاستعمار . عباس محمود العقاد .

لماذا يعادى الغربُ الإسْلامَ ؟

إن من أسباب معاداة الغرب للاسلام هو : أن الشرق يعتبر ـ باستثناء الاسلام ـ مجرد امتداد للغرب وتابعا له ومسرحا لسيطرته : وظل هذا الفهم قائما حتى القرن التاسع عشر . من حيث إن الشرق الاسلامى والعربى هو المنطقة الوحيدة التى كانت تمثل تحديا سافرا لأوربا ، سواء فى المجالات السياسية أو الثقافية ، بل أيضا فى فترة من الفترات فى المجال الاقتصادى .

لذا كان الاستشراق يتميز ، خلال مرحلة طويلة من حياته ، بهذا الموقف العدائى المعادى للاسلام المناوىء للثقافة الاسلامية والعربية . لأن الاسلام هدد أوربا المسيحية حتى عام « ١٥٧١ » ، وقد أفلح خلال ذلك أن يزعج سلطان روما نفسها ويزلزله ، وهو أمر لايمكن لأى أوربى أن ينساه أو يتناساه وهذا الموقف يثيره الاستشراق دائما فى كتاباته ، فيحرك فى الأعماق كثيرا من الآلام فى نفوس الأوربيين .

ولم يكن ذلك الهدف يغيب عن الحملة الفرنسية . فوضعت الخطة على هذا الأساس ، وكان لها جانبها العسكرى ، وجانبها العلمى والثقافى أيضا ، وكانت مصر تعتبر الحلقة الأولى ضمن سلسلة طويلة لاحتواء الشرق ، فتمخضت الحملة من ناحية الاستشراق عن إنشاء المعهد المصرى ، بكل مافيه من علماء ومفكرين فى مختلف فروع التخصص ، وهم الذين درسوا مصر من مختلف الجوانب وألفوا كتاب « وصف مصر » الشهير الذى يقع فى ثلاثة وعشرين

جزءا ضخما ، يهدف كما يذكر ادوارد سعيد ، إلى صنع مصر عن طريق إحياء تراثها القديم ، ونقلها هي ذاتها من حاضرها الى حاضر أوربا .

ولقد استفاد نابليون فى وضع خطته ، بكتاب « الكونت دوفولنى » : « رحلة فى مصر وسورية »[١] الذى ظهر فى مجلدين « ١٧٨٧ » ، وقد تعرض « فولنى » فى الجزء الثانى للاسلام . ولكن كتاباته كما يقول د. شكرى النجار عن الاسلام من حيث هو دين ، ومن حيث هو نسق من النظم السياسية كانت تتسم بالتحامل ، فأدى به فى نهاية الأمر الى اعتبار الشرق الأدنى ليس أكثر من مكان يمكن لفرنسا ان تحقق فيه أطماعها الاستعمارية .

قد تعرض « رودى بارت » فى كتابه « الدراسات العربية والاسلامية : فى الجامعات الألمانية والمستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه » لهذا السؤال . عرض له فى المقدمة مترجمه د. مصطفى ماهر فقال : قد تعرض المؤلف فى أجزاء من الكتاب لموضوع هام : هو مدى تقبل أهل الشرق لدراسات المستشرقون . والرأى عنده « بارت » أن دراسات المستشرقين تقابل بالشك والريبة . واستشهد بكتاب صغير للدكتور محمد البهى بعنوان « المبشرون والمستشرقون ومواقفهم من الاسلام » والحقيقة ان الاستشراق ارتبط فى بدايته كما يقرر الأستاذ يوهمان فوك فى كتابه المشار اليه بالحركة الصليبية ، وأن المستشرقين الأول كانوا يعتبرون عملهم نوعا من الكفاح ضد الاسلام والعروبة . كذلك ارتبط الاستشراق فى أوقات بعينها .. كما يشهد على ذلك « رودى » نفسه ، بالاستعمار . ولهذا فلا ينبغى أن يكون من المستغرب أن يكون هناك بين المسلمين والعرب اتجاه يقوم على الارتياب والتشكك فى نوايا المستشرقين .

---

(١) لم الاهتمام بالاستشراق ــ شكرى النجار ــ مجلة الإنماء العربى ص٩٧ .

يقول بارت : « أما أعمال المستشرقين فى مجال الدراسات الاسلامية ، فهى أعمال لها أهميتها الكبرى ، لكن المسلمين ينظرون إليها نظرة تختلف عن الأعمال التى ينشئها العلماء المسلمون ، فالإسلام بالنسبة للمسلمين ليس علما فحسب ، ولكنه قبل كل شىء آخر دين[١] .

كذلك إذا نظرنا الى تاريخ تطور الاستشراق فى بداياته الأولى مع الدراسات الاسلامية ، رأينا أنه بدأ بترجمة القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية بتوجيه من الأب « بيتروس فينير إبيليس » رئيس دير كلونى ١١٤٣م وكان ذلك على أرض أسبانية ، وعلى الأرض الأسبانية وفى القرن الثانى عشر نشأ أول قاموس عربى لاتينى . وفى القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر أنشأ « ريموندوس لالوس » فى جزيرة ميورقة كراسى لتدريس اللغة العربية .. يقول بارت : وإن كان الهدف من هذه الجهود فى ذلك العصر وفى القرون التالية هو : التبشير ، وهو إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الاسلام واجتذابهم الى الدين المسيحى . ويحيل بارت القارىء الى كتاب تخصص فى هذه الدراسة وصفه « نورمن دانيل » باسم : « الاسلام والغرب » ١٩٦٠ .

يرى صاحبه : أن موقف الغرب المسيحى فى العصر الوسيط من الاسلام هو موقف الدفع والمشاحنة فحسب[٢] .

وهذا الموقف البغيض الكاره للاسلام ليس نتيجة ، فلة المصادر التى تعينهم على معرفتهم للاسلام ، فلقد عرفوه من مصادره الأولى . وإنما الحقيقة أن العلماء ورجال اللاهوت فى العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى فى تعرفهم على الاسلام ، وكانوا يتصلون بها على حب كبير ، ولكن كل محاولة

---

(١) الدراسات العربية والإسلامية فى الجامعات الألمانية منذ تيودور نلدكة ـ ترجمة مصطفى ماهر .

(٢) الدراسات العربية والإسلامية .. وكتاب الاستشراق د. محمود حمدى زقزوق .

لتقيم هذه المصادر على نحو موضوعي نوعا ما ، كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل فى أن هذا الدين المعادى للمسيحية لايمكن ان يكون فيه خير ، وهكذا كان الناس « الغرب » لا يولون تصديقهم لتلك المعلومات التى تتفق مع هذا الرأى المتخذ من قبل وكانوا يتلقفون منهم كل الأخبار التى تلوح لهم مسيئة الى النبى العربى والى دين الاسلام[1] .

ويقول د. زقزوق : فقد كان الاسلام ـ كما يقول : ساذرن ـ يمثل مشكلة بعيدة المدى بالنسبة للعالم النصرانى فى أوربا على المستويات كافة[2] .

ويفصل مارسيل بوازار[3] أسباب عدم تفهم الغرب للإسلام فيقول :

نستطيع القول ، اليوم ، أكثر من أى وقت مضى ، بأن الغرب يمتلك ، حول الإسلام معلومات هائلة من مصادر مختلفة وذات نوعية شديدة التنوع ، لكنه يمتلك ، فى الواقع ، معرفة جد محدودة . بدأت التوضيحات والتعليقات تتكاثر منذ عهد قريب جداً . فقد ازدهر الاستشهاد الزائف بالقرآن والسنة فى الصحافة اليومية ، لقد شوهت هذه الاستشهادات أو بكل بساطة اخترعت لدرجة أنها لم تعد قادرة على إزعاج المسلمين الذين يعيشون فى الغرب ، ولكنها تعطى ، للرأى العام صورة عن الإسلام منحرفة كليا .

إن تأثير وسائل الإعلام بات معروفا لدرجة تغنينا عن عناء التذكير بتفاصيله ، الإعلام الذى هو ، فى بلدان اقتصاد السوق ، ليس سوى سلعة للتسويق ، اكتسب بالضرورة طابع سلعة تباع أفضل بيع كلما كانت ملتصقة بالأحداث اليومية ، ومثيرة بقدر الإمكان بله مرضية . الشائعة ، الفكرة

---

(١) نفس المرجعين السابقين ص ١٠ .

(٢) الاستشراق والخلفية التاريخية للصراع الحضارى ص٢١ د. محمود حمدى زقزوق .

(٣) الإسلام اليوم ص١٥ ـ اليونسكو .

الخاطئة ، أو التفسير المغلوط تنتشر عادة وكالات الأنباء المتخصصة الكبرى وتغور حينئذ فيما يشبه صندوق رجع الصدى ، لكي تظهر فى النهاية ، كحقيقة رسمية أو كواقعة لا يأتيها الباطل أو تكاد ، لدرجة أن تكذيبها لا ينجح أبدا فى تصحيحها كليا .

بيد أن بواعث تفهم الإسلام والمسلمين من قبل الغرب أكثر قدما من سوء التفاهم الناجم عن تفسير الأحداث السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة .

وهى أيضا أكثر عمقا وأشد تنوعا ، حتى إذا ظل عدد ما من الأفكار الخاطئة قائما عبر العصور ، مثل فكرة الجهاد ، الذى ترجم مع الأسف فى الفرنسية بـ « الحرب المقدسة » وضع المرأة ، قبول الحداثة والتكنولوجيا إلخ .. لكيلا نذكر إلا بعض الأمثلة .

بالطبع لا نريد هنا وضع قائمة جرد بالقوالب التافهة والأفكار الخاطئة .

فذلك مضجر ، وفضلا عن ذلك فليس من الجدى أن نتبادل التهم طويلا حول الأسباب المشتركة لعدم التفهم . بل إن استطرادا حرا حول صورة الإسلام فى الغرب يقدم فائدة أشمل . لن نحلل هنا صورة الغرب فى العالم الإسلامى فهذا موضوع آخر ، مهم دون شك ، لكنه يظهر فى منظور خاص . لأسباب تاريخية بدا الغرب ، وخاصة خلال القرنين الأخيرين ، فى أعين شعوب المستعمرات ، بملامح المسيطر أكثر مما بدا بملامح المحاور ، عدوانيا أحيانا وماديا غالبا . بيد أن صورة الغرب فى الإسلام هى ، دون شك ، أقل تشوها من صورة الإسلام فى الغرب .

تعايشت حضارتا الإسلام والغرب منذ خمسة عشر قرنا تقريبا . كان المحاربون والتجار ، فى الحوار بين هاتين « الأديولوجيتين » بأنبل معانى هذه الكلمة هم السُعاة الأول ، ثم تلاهم رجال الدين ثم ، فى القرن التاسع عشر

تقريبا ، أولئك الذين سموا بـ « المتخصصين فى الإسلام » أو « المستشرقين » .

لقد تغيرت المعطيات اليوم كثيرا . من هؤلاء السعاة الأربعة ، اختفى اثنان : الجندى والكولون (المعمر) . كما اختفى المبشر أيضاً . أما المستشرق فهو بصدد تغيير سيرته ، تغيير نبرته وموقفه .

الاقتحام المفاجىء لظاهرة « الإسلام » فى الأحداث السياسية المعاصرة لم يسهل دون ريب ، تفهم الرأى العام الغربى ـ الذى اكتشف جزء كبير منه الإسلام خريف ١٩٧٣ بمناسبة حرب أكتوبر ـ للمسلمين .

أسباب عدم تفهم الغرب للإسلام عديدة ومعقدة . إنها تستند أساسا على دوافع دينية ، تاريخية ، نفسية ، ثقافية ، وتثقيفية ، ومجددا الآن ، على اعتبارات سياسية واجتماعية ـ اقتصادية[١] .

على الصعيد الدينى أولا ، نظرة المسيحية لن تتغير أو لم تتغير إلا قليلا منذ خمسة عشر قرنا . إنها مطابقة للموقف المألوف لكل دين منزل ، مظهرة لشىء من التسامح العقائدى إزاء الأديان السابقة (أنبياء اليهودية فى هذه الحالة) لكنها قابلت بالرفض المطلق دينا لاحقا : الإسلام . ظهور الإسلام اللاحق تاريخيا شوه حقيقته النهائية ، فى نظر النصارى . بدا الإسلام ، منذ البيزنطيين كانحراف للنصرانية . فقد الصقت بالنبى محمد أوصاف وقحة ، وفى النهاية عبثية ، فقد صور فى صورة راهب مرتد أو فى أى صورة مشابهة . فقد كان النصارى آنذاك يظنون أن بوسعهم تشويه الإسلام بتشويه رسوله ، محمد ، بمقارنة ساذجة مع المسيحية . وهكذا فالإسلام غدا يدعى بالمحمدية . بالتأكيد لقد تغيرت الأزمان لكن صورة النبى الزائفة على نحو مضحك لم تتغير ، رغم أن البحث التاريخى برهن مرارا على أن هذه المزاعم التقليدية كانت خاطئة ،

---

(١) نفس المرجع السابق .

تحاول السلطات الكنسية من جهتها أيضا المشاركة فى استبعاد القوالب الأكثر سخافة .

يجدر بنا ، فى هذا الصدد ، أن نشير إلى أن الكرسى الرسولى ، وخاصة منذ المجمع الفاتيكانى الثانى ، قد اتخذ موقفاً فى منتهى الشجاعة ، ليحول جذرياً أسس الحوار الإسلامى ـ المسيحى ، باهتمامه أولاً بالتغير التدريجى لعقلية إخواننا المسيحيين . وهذا ما يهم قبل كل شىء . المهمة هائلة وستكون طويلة . إن كتابة سر الكرسى الرسولى لغير المسيحيين أشارت إلى ما يمكن أن تكون الخطوات الأولى نحو عالم بإمكان كل أحد فيه أن يكون مفهوماً ومحترماً ، عرضت الإسلام عرضاً موضوعياً ، ثم أوصت الكاثوليكيين بـ « الاعتراف بمظالم الماضى » والتحرر من « الأوهام الأكثر شهرة » حول الإسلام ، التى هى القدرية ، التساهلية ، القفهورية ، التعصب ، الجمود ، إلخ .... سعى أيضاً المجلس المسكونى للكنائس إلى ربط حوار أكثر أخوة مع المسلمين ، حوار ما زال يصطدم بعقبات شتى ، منها غياب المركزية الإدارية فى البروتستانتية العالمية[1] .

على الصعيد الثقافى ، أسباب عدم التفهم تنحصر أساساً فى أمرين ، من جهة ، على المستوى المذهبى ، ينجم سوء التفاهم من موقف يمكن تلخيصه على النحو التالى : الأقارب هم أقل الناس تفاهماً ، يجد المسيحى فى الإسلام أشياء كثيرة تذكره بدينه وعقائد وأفكاراً متماثلة أو قريبة جداً من عقائده وأفكاره . وهذا ما يبدو له معروفاً جداً لدرجة أنه يمر به ساهياً دون أن يأخذ الوقت الضرورى للتوقف لكي يستخبر ، مع الاهتمام الكامل الذى يكتسبه المرء غالباً بصدد ما يتخيله معروفاً جداً ، لكنه لا يعرف بما فيه الكفاية لكى يفهمه فهماً أفضل .

---

(١) الإسلام اليوم ـ مارسيل بوازار .

قام بعض الاختصاصيين بدراسات علمية وشكلوا تدريجيا ما تواضع الناس على تسميته بالاستشراق . كان الباعث فى القرن السادس عشر تبشيريا .

فقد كان لابد من معرفة الإسلام معرفة جيدة لمحاربته محاربة جيدة على مستوى العقيدة . فقد ترجم القرآن إلى اللاتينية وانكب المفسرون المسيحيون على دراسته من أجل نقده . هذا النقاش اللاهوتى ، الذى لم يكن دائما صادرا عن حسن نية ، من كلا الطرفين ، ساهم فى أوسع استخبار متبادل ، لكنه لم يساهم فى إيجاد تفاهم أفضل . ومن الطريف أن صورة الإسلام ربما غدت الصورة الأكثر إيجابية خلال « عصر الأنوار » بالتأكيد ، لم تختف التفسيرات الخاطئة والقوالب المألوفة فيه ، لكن بعض التعاطف مع الإسلام نما وتطور .

ولذلك فى الواقع سببان متداخلان أحيانا ، أحدهما دخيل ، والآخر فلسفى وسياسى . بالنسبة للسبب الأول ، الافتتان الرومانسى بما هو دخيل ، كان يتطابق مع الموضة ، مع ذوق الجمهور المثقف والمتفرغ فى ذلك العصر ، المنجذب نحو الشرق . ألف ليلة وليلة التى لقيت فوراً نجاحاً باهراً ، رغم أن فكرها الحقيقى شوهته كليا الترجمة الفرنسية . استمر هذا الاهتمام ، الفكرى الخالص ، قائما . فقد أقام « لامارتين » فى فلسطين . « وأجين سو ثم فلوبير » ، لكى لا نذكر إلا الأمثلة الأكثر شيوعا ، حلا بها أيضا . وقبلهما أدخل موليير « التركيات » فى كتاباته . أما « كورنارى » فقد استلهم الأدب الملحمى العربى الإسلامى فى أسبانيا عند كتابة أحد أجمل آثاره سيرا على المستوى الميتافيزيقى ، وعرضيا السياسى ، درس « فولتير » بجد كبير الإسلام ، لكن مع الأسف استنادا إلى مصادر ثانوية ومشوهة « عرف جان جاك روسو » المسلمين بواسطة أبيه الذى ـ قبل أن يستقر فى جنيف ـ كان ساعاتيا فى إستنبول ، وبواسطة عمه الذى كان قنصلا فى البصرة . خلافا لفكرة شاعت على نحو زائف .

هل لدى الاستشراق قضايا أخرى غير تشويه الإسلام ؟

تحديد نقاط التشويه للإسلام

يحصر مونتجومرى قضايا الإسلام التى تشكل لدى الاستشراق قوالب مصبوبة فى أدمغتهم هم وحدهم لا يبرحون عنها ولا يبغون عنها حولا ، وها هم الآن قد أشبعوها شرحاً وتزييفاً وضلالاً . ورغم أن مونتجومرى[1] حصرها وقيمها فإن الاستشراق يصر على استرجاعها .. فهل لديه قضايا أخرى ؟ ذلك ما ننظره فى تلك الدراسة .. وهى كما حصرها مونتجومرى .

(١) المسلمون والحضارة :

نظرة مونتجومرى وات : يقول مونتجومرى وات ص ٧ بين منهجه :

« إنى لن أنظر إلى المسلمين باعتبارهم دخلاء بين العديد من الدخلاء على القارة الأوربية ، وإنما باعتبارهم ممثلين لحضارة ذات إنجازات على رقعة أرض مجاورة » .

(٢) وات يرفض النظرة الأوربية القديمة إلى الإسلام وحضارته فيقول :

« قد أدرك الناس منذ زمن أن الكتاب المسحيين فى العصر الوسيط خلقوا صورة للإسلام هى صورة شائهة من وجوه عديدة ، غير أن وجود الباحثين خلال القرن الأخير قد مهد السبيل من أجل تكوين صورة أكثر موضوعية له فى عقول الغربيين » .

---

(١) فضل العرب على الحضارة الأوربية ـ ترجمة حسين أحمد أمين .

ثم يقول : « ومع ذلك فإننا معشر الأوربيين نأبى فى عناد أن نقر بفضل الإسلام الحضارى علينا ، ونميل أحيانا إلى التهوين من قدر وأهمية التأثير الإسلامى فى تراثنا ، بل ونتجاهل هذا التأثير تجاهلا تاما . والواجب علينا من أجل إرساء دعائم علاقات أفضل مع العرب والمسلمين ، أن نعترف اعترافا كاملا بهذا الفضل . أما إنكار معالمه فلا يدل إلا على كبرياء زائف » .

(٣) روح الشجاعة البدوية :

كان من عادة قبائل البدو العربية لقرون عدة سبقت الإسلام شن غارات على القبائل الأخرى ، وكان الغرض المألوف لهذه الغارات أو الغزوات سلب إبل الأعداء أو مواشيهم فكان الحافز مادياً .

أما بالنسبة للمسلمين أنفسهم فقد كان الغزو استمرارا طبيعيا لنشاط عرفوه منذ حياة الرسول (ﷺ) ، وقد جاء هذا النشاط نتيجة تحول طرأ على طبيعة نزوات البدو فى الجاهلية .

(٤) الجهاد فى سبيل الله :

وبعد أن هاجر النبى إلى المدينة عام ٦٢٢ وشرع الجهاد وفصلته الآيات القرآنية نظمت الغزوات والسرايا . من هنا بات من الضرورى توجيه طاقات قبائل البدو التى كانت فى الماضى تجد فى الغارات متنفسا لها وجهة أهداف جديدة للغزو ، ومما استلزم توسعا يعقبه توسع ، ومن ثم فإنه طالما كان النصر حليف المسلمين ، أدت ممارسة الجهاد إلى نمو مستمر للتحالف الإسلامى إلى توسع إقليمى دائب .

(٥) السيف وانتشار الإسلام :

يقول مونتجومرى وات : ولا يعنى القول بالجهاد أن الدين الإسلامى قد انتشر بالسيف .

هناك من المستشرقين من التمس بعض الروايات غير المحررة التى رأى فيها ما يؤيد دعواه بأن الإسلام انتشر بالسيف : وهو أن أفرادا من القبائل الوثنية فى شبه جزيرة العرب الذين باتوا هدفا للجهاد خيروا بين الإسلام والسيف .. ولم يستثن من ذلك غير اليهود والنصارى والصابئين ممن اعتبرهم الإسلام من الموحدين . عوملوا معاملة مختلفة .

يرى « وات » أن الغرض من الجهاد ليس تحويل أهلها عن دياناتهم إلى الإسلام وإنما إخضاعهم للحكم الإسلامى باعتبارهم من أهل الذمة .

وبذا أصبح الذميون جماعات يدين أفراد كل جماعة بدين واحد لهم استقلال ذاتى داخل المجتمع الإسلامى ويسمون رئيسهم الدينى البطريك أو الحاخام . وفرضت على هؤلاء الجزية يدفعونها عن كل فرد منهم إلى الوالى المسلم لقطرهم ، كما فرض عليهم دفع مبالغ أخرى مختلفة وفق ما تنص عليه شروط العهود والاتفاقات المبرمة مع جماعاتهم .

وكانت الدولة الإسلامية تعتبر أن حمايتهم حماية فعالة من أقدس واجباتها . فالجهاد غير السيف قد أدى عسكريا إلى توسيع رقعة الدولة الإسلامية ، غير أنه لم يؤد بصورة مباشرة إلى تحويل شعوب الأقطار المفتوحة عن دينها .

(٦) الهمجية العربية :

ينظر بعض المستشرقين إلى الفتح العربى لأسبانيا باعتباره غزوا همجيا .

يرى « وات » أنه من الواجب أن نقمع بشدة أى ميل إلى تشبيه العرب بأولئك الهمج ، لأن هؤلاء العرب يمثلون إمبراطورية باتت خلال القرن أو

القرنين التاليين صاحبة أعظم حضارة وثقافة فى تلك المنطقة الشاسعة من المحيط الأطلسي إلى أفغانستان .

(٧) الثقافة العربية وحضارات الأمم المفتوحة :

كان العرب شعباً بدائياً نسبياً ليس فى حوزته غير القليل من الممتلكات المادية ولا تزيد ثروته الأدبية عن إنجازات فى ميدانى الشعر والخطابة . ولم يكن المستوى الثقافى قبل نزول العرب قد نما بدرجة كبيرة حتى نزول الوحى وأقيم نظام الدولة الإسلامية ، وخرقت سماء العرب مشكلات ثقافية وفكرية لم يعهدوا مثلها من قبل فتهيأت العقول لمزيد ثقافى من المراكز الثقافية الكائنة بمصر والعراق والشام فبدأ بذلك اختيار ثقافى دام لعدة قرون .

وعرفت تلك الشعوب حضارة المدن من آلاف السنين ، حضارة تمتد جذورها إلى زمن السومريين والأكاديين وفراعنة مصر .

يقول وات : فإذا بكل ما ارتؤى أنه ذو قيمة وينبغى بالتالى الحفاظ عليه من بين تجارب تلك الآلاف من السنين ، قد أضحى الآن يعبر عنه بلسان عربى ، لقد فرض العرب لغتهم وبعض مناحى تفكيرهم على معظم شعوب دولتهم ، وذلك بالرغم من أن الكثير من أفراد هذه الشعوب كانوا على مستوى حضارى وثقافى أعلى من مستوى الفاتحين .

ذلك على خلاف ما حصل مع الرومان حين ضم الرومان أراضى اليونانيين إلى إمبراطوريتهم كانت النتيجة ـ كما عبر عنها أحد شعراء اللاتينية ـ أن أوقعت اليونان الأسيرة فاتحها فى أسرها « فقد ظلت اللغة اليونانية بوجه عام فى ظل الرومان لغة الثقافة والعلم » .

أما الفتوحات العربية فلم تؤد إلى وقوع العرب « فى الأسر » على ذلك النحو .

لقد ساهم فى إحداث تلك النتيجة ذلك الكبرياء العظيم وتلك الثقة الكبيرة بالنفس اللذان يتمتع العربى بهما ..

يقول وات : فالعرب البدو الأقحاح كانوا يؤمنون بأنهم أسمى من كافة البشر ، وقد نسب جانب كبير من هذا الاعتداد بالنفس إلى الإسلام الذى يرى فيه المسلمون أرفع وأنقى صور عبادة الله .

وحين اعتنق الإسلام أناس تلقوا تعليمهم فى ظل تقاليد ثقافية سابقة ، بات عليهم أن يمزجوا فى أذهانهم ما تلقوه فى الماضى من العلم بدراساتهم القرآنية ، فإذا بمساهمتهم تصب فى التيار العام للفكر الإسلامى وإذا بثقافة إسلامية قائمة بذاتها تتشكل نتيجة لهذه المساهمات .

وما كان هذا التمثيل للمعارف الأجنبية ليتم لولا تبلور لب هذه الثقافة الجديدة فى نفس الوقت ، وعلى نحو طبيعى ، هو ناجم عن الاهتمامات الرئيسية لدى المسلمين العرب .

وطرحت مسألة تطبيق الأحكام القرآنية على المشكلات المعاصرة وتحديد إمكان الاستفادة من سنة النبى لحل هذه المشكلات ، وكانت ثمرة هذه المناقشات أن ظهر علمان جديدان : علم أصول الفقه ، والفقه . وعلم أصول الدين ومشكلاته الكلامية .

ثم تضافرت جهود مشتركة نحو جمع سنة الرسول لتكون معيارا ملزما وارتبط بجمع السنة علوم أساسية لتحرير السند متنا ورواية : مثل علم الرجال أو دراسة سير المحدثين من نقلة تلك الروايات وجمع السيرة النبوية ، وصحب دراسة الحديث دراسة القرآن . فدرست مسألة ترجمة القرآن إلى لغات غير لغته ترجمة مرضية ، وبالتالى كان على من أسهم من غير العرب أن يحفظ القرآن أو يقرأه باللغة العربية . وهو ما أدى إلى : دراسة النحو العربى وصناعة تأليف المعاجم ولكى يتحققوا من المعانى الأصلية للكلمات قاموا بجمع الشعر العربى الجاهلى .

(٨) ترجمة الكتب اليونانية :

لقد عنيَ بعلوم اليونان ، وقد كانت هذه العلوم ــ وقت الفتح العربى للعراق ــ تدرس فى المدارس المسيحية فيه ، وكان الكثير من الكتب اليونانية الأساسية قد ترجم إلى السريانية ، وهى لغة التعليم فى تلك المدارس .

وقد بدأت ترجمة هذه الكتب إلى العربية قبل عام ٨٠٠ ، غير أن الخليفة المأمون (٨١٣ ــ ٨٣٣) كان أول من عنى بتنظيم عملية الترجمة ، وقد كان الاهتمام بدراسة هذه العلوم اليونانية لفترة من الوقت يكاد يقتصر على المدارس الطبية المسيحية .

٩ ــ مرحلة الرد والنقاش :

غير أنه بدأ منذ القرن العاشر نهوض المسلمين بتأليف كتب من ابتداعهم ، وقد يكون الأحرى أن نصفهم بالمسلمين اسماً حيث إنهم كان ينظر إليهم عادة باعتبارهم من الزنادقة ، ولم تمتزج مؤلفاتهم بالتيار الرئيسى للفكر الإسلامى إلا على نحو تدريجى . ولم تكن هذه الثقافة مقصورة على منطقة معينة من الدول الإسلامية وإنما كانت منتشرة انتشاراً واسعاً أينما كان الإسلام قوياً مترعرعاً .

١٠ ــ الوجود الإسلامى فى أوربا وردود فعله :

كان غزو أسبانيا وصقلية يعنى ، لفترة من الوقت ، وجوداً إسلامياً على أطراف العالم المسيحى اللاتينى غير أنه فى حد ذاته لم يكن خطراً ملحاً يستند لرد فعل قوى .

يقول وات : ويمكن لنا أن نعتبر الحركة الصليبية فى ختام القرن الحادى عشر رد فعل نشط لمواجهة الإسلام ، غير أن مركز هذه الحركة كان فى شمال فرنسا .

١١ ـ أسبانيا والمشرق :

ورغم أن أسبانيا فى عهد الأمويين لم تكن تعترف بالخليفة العباسى فى بغداد فقد ظلت صلاتها الثقافية قائمة بالمشرق الإسلامى .

وكان من السهل السفر إلى مراكز العلم كالمدينة ودمشق وبغداد ، وكانت الكتب تصل إلى أسبانيا بعد سنوات قليلة من نشرها فى المشرق .

١٢ ـ أرنست رينان فى القرن التاسع عشر :

لقد ذاعت بين الناس فى القرن التاسع عشر فكرة أرنست رينان وغيره التى تربط التزام الناس الصارم بمبدأ التوحيد ، بشعور الإنسان وهو وحده وسط الصحراء الشاسعة بأنه كائن لا قيمة له .

يرى وات : أن هذه الفكرة لا أساس لها من الواقع ، فلم يكن المسلمون الأوائل من البدو قاطنى الصحراء ، وإنما كانوا من سكان مكة ، وهى مركز تجارى هام ، ومن أهل المدينة وهى زراعية ، صحيح ، حتى إن الصحراء نفسها كانت طريقاً تجارياً ومعبر عملياتهم التجارية .. يقول وات : ومع ذلك فما كان البدو إلا نادراً مسلمين أتقياء لا فى حياة النبى ولا فى الأزمنة التالية لوفاته .

١٣ ـ التبادل التجارى فى العالم الإسلامى :

يقول وات : وقد يكون صحيحاً ما قيل عن أن العالم الإسلامى بأسره كان منطقة تجارة حرة موحدة ، وأن حجم التبادل التجارى يختلف من بقعة إلى أخرى . والواضح مع ذلك أن التجارة انتعشت فى معظم الأقطار الإسلامية وأنها أدت إلى قدر ملحوظ من التماثل فى الحضارة المادية .

وحين قام الحكم الإسلامي في أسبانيا وصقلية أقام القطران على الفور علاقات تجارية مع الأقطار الإسلامية الأخرى . وتبنيا تدريجاً مظاهر الحضارة الإسلامية وكانت النتيجة فى أسبانيا وصقلية أن أضحى الوجود الإسلامى هناك وجوداً حضارياً ، لا مجرد وجود عسكرى وسياسى[1] .

١٤ ـ أسبانيا الإسلامية وأوربا فى العصر الوسيط :

حاولت فى الفصول السابقة أن أبين كيف أدى الوجود الإسلامى فى أسبانيا وصقلية ، والصلات التجارية العديدة فيهما وفى أنحاء أخرى ، إلى انتشار المنتجات والطرائق التقنية الإسلامية . فأما ما انتشر بهذه السبل فلم يشعر الأوربيون بأنه غريب عليهم . ويهدد هويتهم . بل إنه حتى الحضارة المشتركة فى أسبانيا الإسلامية اعتبرها المسيحيون المستعربون ناجمة عنهم بقدر ما هى ناجمة عن المسلمين . كذلك فقد أوضحت كيف تمخض ازدياد الرخاء والحيوية فى أوربا الغربية خلال القرن الحادى عشر عن ظهور الحركة الصليبية ، وكيف وجهت هذه الحركة بصفة أساسية ضد المسلمين . ولاشك أن هذه الحيوية ذاتها هى صاحبة الفضل فى إقدام المثقفين الأوروبيين فى القرن الثانى عشر على دراسة علوم العرب وفلسفتهم . وإذا فرغنا الآن من دراسة هذه المظاهر المختلفة للعلاقة بين الإسلام وأوربا الغربية ، أصبح بوسعنا أن نذكر شيئاً عن المغزى الكلى لهذه العلاقة بالنسبة لأوربا .

وقبل أن نطرق هذا الموضوع الهام ، ينبغى أن نذكر مظهراً آخر . فقد ذكرت آنفاً أنه حين يستعرض المؤرخ المسلم تاريخ أوربا فى العصر الوسيط ، يجذب انتباهه قبل أى شىء آخر أمران : العمق الروحى أو الدينى للحركة

---

(١) فضل الإسلام على الحضارة الأوربية ـ ترجمة حسين أحمد أمين .

الصليبية ، وكيف يتسنى للصورة الشائهة عن الإسلام أن تهيمن على الفكر الأوربي من القرن الثاني عشر حتى يومنا هذا تقريباً . وقد آن الأوان أن نذكر شيئاً عن هذه الصورة الشائهة .

١٥ ـ الفكرة الشائعة عن الإسلام وتطورها :

يبدو أن الحركة الصليبية هي التي أدت إلى زيادة اهتمام الباحثين الأوربيين بالديانة الإسلامية . صحيح أنه كان ثمة بعض الإحاطة بالإسلام من قبل ، سواء بفضل المصادر البيزنطية ، أو بفضل صلات المسيحيين بالمسلمين في أسبانيا . غير أن تلك المعارف السائدة وقتذاك كانت مشوبة إلى حد رهيب بالأوهام والأخطاء . فقد نظر إلى العرب باعتبارهم وثنيين يعبدون محمداً ، ونظر إلى محمد باعتباره ساحراً بل الشيطان بعينه . كما شاع القول بأن الدين الإسلامي يبيح الاتصال الجنسي غير الشرعي ويطلق العنان لإشباع الغريزة الجنسية .

وليس من المستغرب أن نجد من بين أوائل من أبدى تفاهماً حقيقياً للإسلام ، أفرادا سبق أن أشرنا إليهم في زمن المترجمين . فقد خصص « بدرو دو ألفونسو » اليهودي المتنصر في بداية القرن الثاني عشر ، إحدى محاوراته لموضوع الطعن في الإسلام . وهي محاورة تتميز بدقة المعلومات فيها عن هذا الدين ، وإن لم تكن قد ساهمت كثيراً في تكوين الصورة له . وأهم من هذه المحاورة الترجمات التي قام بها طالبان لعلم الفلك ، هما « روبرت أوف كيتون وهيرمان الدلماسي » بناء على تكليف من بطرس المكرم في حوالي ١١٤٢ . وعلى أساس هذه الترجمات ، وخاصة ترجمة روبرت اللاتينية للقرآن ، وضع بطرس المكرم نفسه موجزاً لتعاليم الإسلام ، وكان هذان الكتابان ، بالإضافة إلى الترجمات التي أمر بها بطرس المكرم ، تعرف باسم « المجموعة الطليطلية »

أو « مجموعة كلونى » ، وهى أولى المؤلفات العلمية الجادة عن الإسلام باللغة اللاتينية ، بصرف النظر عن المحاورة التى أشرنا إليها حالاً . وقد كان موجز تعاليم الإسلام بالذات خالياً من الأخطاء الفظيعة الشائعة فى أوربا وقتذاك ، وبالتالى فقد كان يشكل تقدماً ملحوظاً ، وسعى فى نفس الوقت إلى تشكيل صورة جديدة عن الإسلام . وقد أضيفت خلال القرنين التاليين تفاصيل كثيرة لملء هذه الصورة ، غير أن العملية كانت قد اكتملت تقريباً حين ألف « ريكولدو دامونتى كروتشى » (المتوفى ١٣٢١) كتابه « الرد على أقوال المسلمين والقرآن » .

والنقاط الأربع الرئيسية التى تختلف بصددها صورة الإسلام فى العصور الوسطى عنها فى الدراسات الموضوعية الحديثة ، هى :

(ا) أن الدين الإسلامى أكذوبة وتشويه متعمد للحقيقة .

(ب) أنه دين العنف والسيف .

(جـ) أنه دين يطلق لشهوات المرء العنان .

(د) أن محمداً هو المسيح الدجال .

وسنذكر الآن فى إيجاز كلمة عن كل من هذه النقاط .

(أ) أن الدين الإسلامى أكذوبة وتشويه متعمد للحقيقة :

كان مفهوم الأوربيين فى العصور الوسطى عن العالم والإنسان والرب شديد الارتباط بمفاهيم الكتاب المقدس ، بحيث لم يكن فى وسعهم أن يدركوا امكان توافر صياغات بديلة للتعبير عن هذه المفاهيم . وبالتالى فإنه كلما اختلفت تعاليم الإسلام مع تعاليم المسيحية قيل : إن الأولى زائفة بالضرورة . ويمكن أن نضرب مثلا للنبرة العامة فى الفكر الأوربى بصدد هذه النقطة فقرة

واردة فى كتاب القديس « توما الأكوينى » ، الكتاب الأول ، الفصل السادس ، مع العلم بأن توما الأكوينى كان من بين أكثر مفكرى القرن الثالث عشر اعتدالا ونبوغاً . فبعد أن تحدث عن الآيات والأدلة العديدة التى تؤكد صحة العقيدة المسيحية وتدعمها ، نجده يصر على أن هذه الأدلة مفتقرة لدى أمثال محمد ممن أسسوا ما أسماه توما بالفرق . وقد ذكر بالاضافة إلى « المتع الجسدية » التى يبيحها الإسلام والتى تجذب الناس إليه ، سذاجة الأدلة والحجج التى جاء بها محمد ، وخلطه الحق بقصص لا سند لها فى التاريخ ، وتعاليمه الزائفة ، وافتقاره إلى المعجزات التى تؤيد زعمه أنه نبى . ثم وصف أتباعه الأول بأنهم « رجال لا علم لهم بإلهيات ... يعيشون فى الصحراء حياة أقرب إلى حياة الحيوانات » ، (وربما كان هذا الوصف منه بسبب قبولهم لأى زعم دون مناقشة أو تمحيص) . ثم يضيف : قوله إن هؤلاء الأتباع كانوا مع ذلك من الكثرة بحيث مكنوا محمداً من إجبار الآخرين بالقوة العسكرية على اعتناق الإسلام . وذكر أنه بالرغم من زعم محمد أن الكتاب المقدس تنبأ بظهوره ، فإن النظرة المدققة توضح أنه « حرف شواهد العهدين القديم والجديد » .

وفى حين قنع « توما الأكوينى » والكثيرون غيره من الكتاب بالقول بأن محمداً خلط الحق بالباطل ، تمادى آخرون فادعوا أنه « حيثما قال قولا سليما دس فيه السم الكفيل بإفساده » . وبالتالى فإنه يمكن مقارنة أقواله الصادقة بالعسل الذى أضيف السم تحته . أو على حد قول أحدهم : « لاحظ فى الكتاب بأسره دعاءه الرائع المتمثل فى أنه كلما أراد أن يقول شيئاً شريراً أو يعيد إلى الأذهان شيئاً شريراً ذكره من قبل ، أسرع بإضافة كلام عن الصوم أو عن الصلاة أو عن حمد الله » .

وإنما كان قصدهم من هذا الحديث فى معرض رسمهم لصورة الإسلام ،

بيان تناقض هذه الصورة مع صورة المسيحية . فقد ارتأوا أن الكتاب المقدس هو التعبير النقي الذى لا تشوبه شائبة عن الحقيقة الإلهية ، وفى طياته شكل مطلق صالح لكل زمان ومكان . وقالوا إن التعاليم المسيحية تستهوى عقول الناضجين والمتعلمين والمثقفين ، وإنها تجد فى الشواهد التاريخية سنداً صادقاً يؤازرها .

(ب) أن الإسلام دين العنف والسيف :

كما قد ذكرنا عرضا أنه حتى العلماء من أمثال الأكويني كانوا يحسبون أن محمداً إنما نشر الإسلام بالقوة العسكرية . كما كانوا يقالون أنه من بين تعاليم دين العرب الدعوة إلى « السرقة من أعداء الله ورسوله وأسرهم وقتلهم ، واضطهادهم وهدمهم بأى صورة من الصور » (بدرو دو ألفونسو) . بل لقد بلغ الأمر بأحد كبار المتحمسين المدافعين عن الحروب الصليبية ، إلى حد قوله : « إن المسلمين شديدو الحماس لدينهم لدرجة أنهم يقطعون دون رحمة رأس أى مخلوق يهاجم هذا الدين فى أى إقليم يسيطرون عليه » .

والواقع أن الصورة الأوربية للإسلام هى أبعد ما تكون عن الحقيقة . وقد بينا فى الفصل الأول أن اليهود والنصارى وأتباع الديانات الأخرى التى يعترف الإسلام بها لم يخيروا بين الإسلام والسيف ، وأن الذين خيروا بينهما هم عبدة الأوثان وحدهم ، ولم نسمع الكثير عن حدوث هذا خارج شبه جزيرة العرب . أما النشاط الحربى للمسلمين ، وهو الذى يملأ خبره كتب التاريخ ، فإنما أدى إلى توسع سياسى ، وجاء اعتناق الإسلام نتيجة الدعوة إليه أو نتيجة الضغط الاجتماعى .

وفى تلك الصورة للإسلام باعتباره دين عنف ما يراد به الإيحاء بأنه مخالف تماماً لصورة المسيحية باعتبارها دين سلام انتشر عن طريق الإقناع . ومن

الغريب أن يصدق الرجال المشتركون فى الحروب الصليبية أن دينهم دين سلام ، وأن دين خصومهم دين عنف . وقد أدرك بعض الكتاب أن مفهوم دين السلام مثال لا علاقة كبيرة بينه وبين الواقع ، وذهبوا إلى أن عدم مراعاة المسيحيين السيئين لهذا المثل الأعلى لا يشكل اعتراضا مقبولا على المسيحية . ويبدو أنهم فسروا هذا التناقض بذكرهم أن الغرض من الحروب الصليبية لم يكن إجبارا على اعتناق المسيحية بالقوة ، وإنما كان ـ على حد تعبير توما الأكوينى فيما بعد ـ منع الكفار من الوقوف حجر عثرة فى سبيل العقيدة المسيحية . وربما كانوا يعنون أيضاً استرداد أرض يرون أنها من حق المسيحيين .

(جـ) أن الإسلام دين يطلق لشهوات المرء العنان :

نظر الأوربيون فى العصور الوسطى إلى الإسلام على أنه دين يتيح الفرصة لإشباع الشهوات ، وخاصة الشهوة الجنسية . وكثيراً ما كانوا يحسبون أنه لا حدود لعدد الزوجات التى يمكن للرجل الزواج بهن . اللهم ، إلا قدرته على الإنفاق . بل إن هناك من الكتاب من كان يعلم أن الإسلام لا يبيح الزواج بأكثر من أربع نساء ، وكتب مع ذلك يقول أن الحد الأقصى هو سبع أو عشر . وكثيراً ما ترجموا آيات قرآنية بحيث توحى بمعنى جنسى منفر ، والآيات بريئة من ذلك . بل لقد وجد واحد على الأقل من الكتاب آية قرآنية أنها تبيح الزنى . ووجد آخرون متعة فى مضاعفة التفاصيل الخاصة بالحياة الجنسية لدى المسلمين . وقيل: إن أشكالا حيوانية وغير طبيعية للاتصال الجنسى بين الأزواج يمارسها المسلمون بكثرة ويحثون عليها . بل ذهبوا إلى أن القرآن يبيح الشذوذ الجنسى . ورأى البعض ذروة الإباحة الجنسية الإسلامية فى التصوير القرآنى للجنة ، وتحدثوا طويلا عن الحور العين اللواتى سيكن من

نصيب المؤمنين فيها ، ووجدوا فى ذلك فضيحة أيما فضيحة . كذلك انتقدوا بشدة حياة محمد الزوجية ، وإن كانوا كثيراً ما بنوا انتقاداتهم على مبالغات أو مزاعم كاذبة .

ولبعض تفاصيل هذه الصور التى رسمها أوربيو العصور الوسطى أساس من الواقع . فللمسلم أن يتزوج أربع نساء ، بالإضافة إلى التسرى بمن ملكت يمينه ، وله أن يطلق امرأته دون أن يذكر السبب . ومع ذلك فالزواج والطلاق تحكمهما إجراءات شرعية دقيقة ، ولا يتمان بطريقة عفوية . أما عن العلاقات الجنسية خارج نطاق الزوجية ، فثمة مجتمعات إسلامية شديدة التعفف ، وقد تقتل الفتاة التى تلد مولوداً غير شرعى على يد أحد أفراد العائلة التى فضحتها بسلوكها . ويعاقب على الزنى بين متزوجين بالرجم (كما فى الكتاب المقدس) . وإن كان توقيع العقوبة مشروطاً بشروط شرعية كثيرة تجعل من النادر حدوثه . فإن كان فى الجنة كما وصفها القرآن حور عين أو أزواج مطهرة ، فكثيراً ما يذكر أن المتعة الكبرى هى رؤية وجه الله . وبالتالى فإن الصورة التى رسمت فى العصور الوسطى للحياة الجنسية الإسلامية هى صورة زائفة فى كثير من الوجوه .

كذلك رأى الأوربيون المسلم مطلقاً العنان لشهوات أخرى . فالحياة الرغدة فى أسبانيا وصقلية الإسلاميتين بدت فى أعين العاجزين عن الاستمتاع بمثل هذه الكماليات حياة قائمة على إشباع الشهوات . وزعموا أن القرآن يعلم الناس أن ينقضوا عهودهم متى كان فى نقضها مصلحة لهم ، وأنه يذكر أن بوسع المرء أن يدخل الجنة دون أن يأتى بأعمال صالحة ، مادام قد نطق بالشهادة . وظنوا أيضاً أن إيمان المسلمين بالقضاء والقدر ليس إلا مبرراً لكسلهم وخوضهم الحياة على غير هدى . وهنا أيضاً تحتوى صورة الإسلام مزيجاً من الحق والباطل . فالإسلام يهاجم الرهبنة ، ولا يرى فى العزوبة فضلاً

كبيراً . غير أنه فى نفس الوقت يقر معظم الأشكال الأخرى للزهد . أما صوم رمضان ففيه مشقة عظيمة ، ومع ذلك فلاتزال قطاعات كبيرة من سكان الدول التى يشكل المسلمون الغالبة فيها تلتزم به إلى يومنا هذا .

ويوحى هذا المظهر من مظاهر الصورة الأوربية للإسلام بأن العالم المسيحى يكبح جماح شهواته . فالمؤكد أن المثل المسيحى الأعلى هو الزواج من واحدة لمدى الحياة ، بل وكان من الشائع الاعتقاد بأنه حتى فى إطار الزوجية لا يمكن اعتبار الاتصال الجنسى خيراً محضاً ، إذ أن الهدف من القوى التناسلية هو إنجاب الأطفال لا اللذة . وسنذكر حالًا بعض الإيحاءات الأخرى لهذه النقاط المثارة حول الشهوة الجنسية .

(د) أن محمداً هو المسيح الدجال :

لم يكتف بعض الدارسين الأوربيين للإسلام بالزعم أن القرآن يوحى الكثير من الكذب ، وأن محمداً ليس بنبى ، فقد تناول بطرس المكرم فكرة لبعض علماء اللاهوت اليونانيين وهى أن الإسلام هرطقة مسيحية ، وذهب إلى أن الإسلام أسوأ من هذا ، وأنه من الواجب اعتبار المسلمين كفرة . وكان جوهر التفكير المسيحى فى هذا الصدد هو أنه حيث إن محمداً ليس بنبى ، وحيث إنه أسس مع ذلك ديناً جديداً ، فلابد أنه ساهم إيجابياً فى مساندة قوى الشر ، ولابد أنه كان إما أداة للشيطان أو عميلًا له . وبهذا جعلوا الإسلام والمسيحية على طرف نقيض .

هذه إذن الجوانب الرئيسية للصورة الشائهة عن الإسلام التى تكونت لدى أوربا فيما بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر . وهى تحمل إيحاء بجوانب لصورة مناقضة للعالم المسيحى الكاثوليكى . وحيث إن هذه هى النظرة التى

نظر بها الأوربيون إلى أنفسهم ، فإنه يمكن أن نسمى هذه الصورة الأخيرة الموحى بها صورة أوربا الغربية . وقد كانوا يعتقدون أن المسيحية حق مطلق ، وأنها تخاطب العقل ، وأنها دين سلام ، وتسعى إلى هداية الناس إليها بالإقناع . وهى دين الزهد والتقشف ، وتقمع كافة شهوات الجسد ، ورغم أنه لم يفصح قط عن هذه الصورة إفصاحاً كاملًا ، فإنها كانت قائمة فيما توحى به الصورة التى رسموها للإسلام .

من هنا تشكلت صورة الإسلام فى الغرب ، لقرون طويلة من خلال تجارب تاريخية : تميزت تلك التجارب التاريخية ، التى جرت بين أوربا والإسلام ، بأنها اصطبغت اصطباغاً شديداً بعداوة غريبة للإسلام ، ساقت أوربا إلى التحزب غير العلمى فى الكتابة ضد الإسلام ، إلى حد أن جعلهم يلوون المنهج العلمى ، بأن قاموا باستنتاجات متفق عليها قبل ، أملاها عليهم تعصبهم ، ثم يبدأون البحث عن الشهود .

فهل لدى الاستشراق قضايا أخرى يقدمها إن أراد مساهمة فيما يطل على الشرق من أحداث ومشاكل منها الاقتصادية والسياسية والثقافية ، والتفاعل الحضارى بين الشرق والغرب ، والبحث عن أسباب التخلف الحقيقية دون إسقاطها على الإسلام إن أراد الاستشراق أن يعرب عن صدق رسالته الحضارية ، لابد أن يقدم صيغة جديدة تمثل مهمات الاستشراق الجديدة تخدم (رسالة الحوار) بين الثقافتين الشرقية والغربية ، أم إنه سيظل قابعاً تحت قبو تلك القضايا يلوكها ويشكلها ويخرجها وفق توصيات السياسة الأوربية - الأمريكية .. أم أنه سيظل تراثياً قابعاً ليخرج مخطوطات وفهارس وبعث ما رفضه مفكرو الإسلام وفقهاؤه ؟.. لاشك إنه إفلاس فى المنهج وزوال فى المصير ..

فلسفة الخطاب الاستشراق :

إن الخطاب الاستشراق لم يكن أميناً فى عرضه للتراث الإسلامى والتاريخى لا للمستشرقين من جانب ، ولا للعالم الإسلامى من جانب آخر لقد شوه الاستشراق من نفسه ومن تاريخه . كما شوه إنجازاته وشوه الشخصية الإسلامية أمام نفسها وأمام العالم الغربى فما استطاع الغرب أن يفهمها حين تعامل معها ، وما استطاعت أن تعرف نفسها للعالم الغربى حين حتمت عليها الظروف التاريخية أن تعرف نفسها للغرب ، فلقد سبقها الاستشراق (سمسار) العلم والفكر ، وزيف معالمها ، وشوه تاريخها ، وأغرى عليها الاستعمار . وقدم الشرق لقمة سائغة لمستعمر قاهر جموح .. وكما شوه الاستشراق الشعوب الإسلامية فلقد شوه بالدرجة الأولى تاريخه ورسالته بوقوفه مع الظلم والاستعمار ضد عدالة الحقوق للشعوب وحريتهم ، فلم يكن ذات يوم سلاح دعم ودفاع للشعوب ضد الاستعمار ؛ فلذلك كانت رسالته وسوف تكون لو عاد التاريخ إلى سيرته الأولى ولسنا ندعى عليه ذلك ظلماً أو نسد الطريق المفتوح أمام رسالة الحوار التى نطلبها إنما قررنا ذلك من خلال تاريخه وتراثه .

من الصعب أن يقيم الاستشراق ، وقد كان تاريخه مرتبطاً بالاستعمار أو بالتبشير الصليبى ، أو العلمانى المبطن ، وفى ظل ظروف دولية معقدة أن يقيم علاقات اعتراف ولاسيما إذا أخذنا بالاعتبار الواقع الانقسامى السياسى فى العلاقات الدولية بين العرب والغرب . يقول إدوارد سعيد : علاقات معرفة لم تتم فى ظروف مناسبة للتعارف السليم بين الشعوب ، بل انخفضت إلى رؤوس واستدلالات معرفية قامت بها فرقة من المستشرقين فى أوربا وأمريكا .

وهذا المدهش فى معارفنا يجعلنا نتساءل : كيف يمكن لأطراف تجهل بعضها بعضاً أو تتجاهل بعضها بعضاً ، أن تعترف اعترافاً تكافؤياً ، ديموقراطياً دولياً

من جهة ، كيف يمكن لها بدون اعتراف تام بوجودها الإنسان المتناسق والمتكافىء أن تتعرف إلى بعضها البعض تعرفاً مختبرياً ـ كالذى أوصلنا إليه المختبر الاستشراق ثم المختبر السياسى ـ الاستعمارى ـ بكل تبعاته الاقتصادية والعسكرية وأنظمة الغزو »[1].

لاشك أننا سنجد صعوبة كبرى فى الخطاب الناقل لها ، فى الكلمات التى ترمز إليها بدقة ، وفى المتخاطبين أنفسهم .. فالاستشراق معناه أو معانيه : نفى الخطاب . والمختبر الذى وضعنا الاستشراق فيه هو المختبر لنصوص المختبر الاستعمارى المختبر الصليبى ، وأن وقوف الاستشراق داخل تلك الدائرة ليتخذ منها عناصر تعريف الغرب بالشرق ، لتعتبر صورة منفعلة جديدة برفض التعامل معها على صعيد مشاريعه للشرق والغرب ، ويكون الاستشراق قد أجرم فى حق نفسه وفى حق علاقات الغرب بالشرق ، حين تخلف عن تعريف الشرق بالغرب معرفة علمية موضوعية بعيدة عن القوالب والصيغ التراثية .

وفمن مظاهر الغرابة والاندهاش ، من نظرة الغربيين المستشرقين إلى الإسلام والمسلمين ، إلى وجودهما بالذات ، أن هناك إجماعاً معرفياً شعبياً على الأقل إن لم نقل نخبوياً أكاديمياً ، فى العالم العربى ، على أن الاستشراق فى مجمله أسهم فى إنتاج العداء للعرب ، وبالتالى أسهم فى استباحة عنصرية للوجود العربى . كما ساعد حين استطاع ، على استلاب المعالم الحضارية العربية الإسلامية ، سواء بخضدها أم بازدرائها . فهل هذا الانتاج شىء طبيعى فى التاريخ »[2] .

---

(١) الاستشراق ـ مشكلة معرفة أم مشكلة تعارف بالآخر ، د. خليل أحمد خليل ـ مجلة الإنماء العربى عدد ٣١ الاستشراق .

(٢) نفس المرجع السابق .

يصف د. صادق جلال العظم فى كتابه[1] : أنه الخطاب المعكوس .. ومايزال ينطلق معكوساً .

ويرى إدوارد سعيد : لم يوقف الصراع العربى السياسى وفى المستوى المعرفى الثقافى عن استيراد منتوجات المستشرقين ونقلها إلى العربية ـ رغم خلوها فى الأصل عن وصف دقيق لما تصف وتحلل ، ومازال العرب مندهشين بأعمال الاستشراق ويذهبون إلى الغرب . ويعنى إدوارد سعيد أن علينا أن نضرب صفحاً عن أعمال الاستشراق . ونتجه إلى تعريف ذاتنا للغرب وليس من خلال أعمال الاستشراق حتى يكف عن إنتاج المعارف المشوهة ، وإنتاج العداء بين الشرق والغرب .

ولقد أدى الاهتمام بالمستشرقين إلى أن أصبح الاستشراق «مؤسسة مشتركة للتعامل مع الشرق» وتوسعت آفاقه وتأسست مفاهيمه وصارت صالحة للتداول وهى كما صنفها إدوارد سعيد :

● استشراق ذو دلالة أكاديمية ، أى كونه بحثاً جامعياً فى معرفة الآخرين .

● وكونه أسلوباً فكريا قوامه تمايزان أساسيان ، وجودى ومعرفى بين غرب يدعى إنه يعرف نفسه تماماً ـــ بنفسه ـ وبين مشرق قابل لمعرفة الغير وعاجز ذاتياً عن معرفة نفسه .

● وكونه متداخلًا مع بنى الدولة الحديثة فى الغرب ومتشابكاً مع توجهات المجتمع المدنى . فمن خلال كونه أكاديمياً وجامعياً ومن أسس البناء الحضارى للدولة تطور من أن بدأ فردياً إلى «مؤسسة مشتركة للتعامل مع الشرق» وأضفى على خطابه لغة الاستعلاء المعرفى وساعده على صفة الاستعلاء النقص المميت فى التقدم المعرفى لدى العرب والمسلمين منذ عدة قرون . وهو فى كل

---

(١) الاستشراق والاستشراق معكوسا .

صورة ليس تعاوناً معرفياً ، وليس تبادلًا معرفياً ـ إنه صورة مزدوجة بين الوجه الثقافى والسياسى .. ويرغب الاستشراق أن يقدم نفسه كحقيقة ثقافية ، ويرغب عن تقديم نفسه كحقيقة سياسية جند نفسه لخدمة الإمبريالية ، فى بعض أدواره .

«وإذا كان الاستشراق قد عجز عن تشخيص معرفة مناسبة ذات نوعية محترمة فهذا يعنى أن بعض المستشرقين الذين اختلطت لديهم العوامل المعرفية والسياسية والنفسانية لم يكونوا أكثر من مصابين بـ «العصاب التوهمى» ـ البارانويا ـ فجاءت معرفتهم للشرقيين مخالفة للمعرفة التاريخية العادية[1]، وإذا كان الأمر كذلك فإن الاستشراق يغدو مشكلة ذهنية ، مشكلة فلسفية ونفسانية : فكيف يسمح عارف لنفسه بألا يكون عقلانياً ـ وهو قادر على ذلك ـ فيلجأ إلى توهمات عن الآخر وغايته : إنكاره لا معرفته كما هو ، فينتج مفاهيم شائعة وابتسارات وأحكاماً منحرفة بدلًا من إنتاجه وعياً طبيعياً لمجتمعات تاريخية وواقعية ؟ هذه التوهمات رصدها إدوارد سعيد فى عينات ثقافية وسياسية انتقادية سليمة[2] .

يقول مارسيل بوازار :

إن كتابات المستشرقين ، عدا بعض الاستثناءات النادرة ، لم تساهم كثيراً فى تحسين تفهم الإسلام أو إعادة دقة الصورة التى كانت لدى الرأى العام الغربى إلى نصابها الصحيح . أولًا لأن أشغالهم كانت غالباً تقدم إلى الجمهور بلغة متخصصة جداً ، صعبة المنال بالنسبة لجمهور غير عارف بالموضوع . وخصوصاً ، من جهة أخرى ، لأن الاستشراق كان فى الأصل ، أحد الفروع

---

(١) الاستشراق ـ إدوارد سعيد ص٩٢ .

(٢) الإسلام اليوم ص١٩ ، ٢٠ اليونسكو .

العلمية المرتبطة بالعلوم الاستعمارية ، فى فرنسا وفى بريطانيا العظمى وفى البلاد الواطئة . فقد كان المطلوب إجمالًا فهم العقلية الإسلامية فهماً جيداً لتسهيل الإدارة الاستعمارية للشعوب الإسلامية ، ليس هذا نقداً بل بديهية تاريخية ، حقيقة لم تحاول الدول الاستعمارية آنذاك إخفاءها .

فضلًا عن أن التراث الدينى الغربى ظل دائماً حاضراً حضوراً خفياً إذ أن هناك مدرستين رئيسيتين قد نمتا : الإنجلو ــ ساكسونية البروتستنتية والفرنسية الكاثوليكية ، يبدو أن هذا التأثير استمر حاضراً حتى يومنا هذا تحت توجيه المواقف التى اتخذها الكرسى الرسولى والمجلس المسكونى للكنائس الذى أشرنا إليه آنفاً .

بالطبع ، لم يكن المستشرقون ظالمين إزاء الإسلام دوماً ، لكنهم كانوا دائماً ــ يضعون أنفسهم فى موضع القضاة . قضاة غالباً ما كانوا نزهاء ، معترفين بما كان يبدو لهم حسناً ومنزلين العقاب بما كان يبدو فى نظرهم سيئاً . قضاة نزهاء لكنهم كانوا مع ذلك مراقبين ، زيادة على أن موقف القاضى الخارجى هذا كان أيضاً خاضعاً خضوعاً واسعاً للعرقية المحيطة التى كانت توهم بأنه لا قيمة إنسانية أو روحية ترجى من ثقافة محكومة مادياً ومستعمرة سياسياً .

بدأ البحث الاستشراقى ، منذ عهد قريب جداً ، يتطور بطريقة جد مختلفة وبدون شك مشجعة ، فمن جهة ، ظهر اقتراب أكثر موضوعية وأكثر تعاطفاً ، بالتوازى مع حوار لاهوتى أكثر تخصصاً بين رجال الدين ، ومن جهة أخرى خاصة ، لأن المسلمين يشاركون الآن ، أكثر فأكثر ، كأساتذة فى الجامعات الغربية ، فى عرض الثقافة الإسلامية عرضاً علمياً ، وفى تقديمها حسب مسعى ذهنى يمس الجمهور المثقف فى أوربا وأمريكا . افتقد الاستشراق خلال أمد طويل ، ما يمكن أن نسميه « كفيلًا » إسلامياً . كان

معظم علماء أو مثقفي العالم الإسلامي ، منذ بضعة عقود ، إما نخباً متغربة غير ملمة بثقافتها الخاصة بجذورها العميقة التي اجتثوا منها ، وإما علماء دين أتقياء ، يجهلون حقائق الواقع السياسي المعاصر[1].

بالتأكيد ، ليس بالإمكان استبعاد عبء الماضي بجرة قلم ، رغم أن العداوة القديمة مستمرة ، على نحو صريح أو خفي ، كتابات بعض الأخصائيين المعاصرين ، فإن فكر الخطال « الاستشراق » ونبرته تطور كثيراً بوجه عام ، فإن كتاباً حديث العهد لا يهم بارتياد الطرق القادرة على تحسين الاستشراق ، الذي اعتبر « كوهم إيديولوجي » بقدر ما يهم بتوجيه نقد لا يرحم ، يشكل ــ رغم رغبته الواضحة في استبعاد الفروق الدقيقة ــ اتهاماً مؤثراً ، فقد تبنى شبهة قديمة أعيدت إلى الواجهة بفضل الجامعيين الأمريكيين في بداية السنوات السبعين ، فيما يخص حياد واستقلال « العلوم الاجتماعية » إزاء السلطات العامة والإستراتيجية السياسية ، فإن المؤلف أصدر حكماً متطرفاً ، وفي معظمه قياساً قوة عادلة ، مستنداً إلى أمثلة عديدة ملموسة : الاستشراق ، أداة أيديولوجية لمجتمع متقدم بإمكانها أن تسمح بمحاكمة وسبر مجتمع مادياً أقل تقدماً . متحلياً بهالة تعمق علمي زائف ، فإنه يحول التعريض إلى حقيقة ، والسجال إلى أرثوذكسية . وهكذا نجح في رسم صورة للشرق مشوهة كلياً ، مظهرة كل ما هو مضاد لرموز الغرب : العقلاني المعتدل والتقدمي . إن ثقة ــ بله غطرسة ــ المستشرقين بأنفسهم بلغت درجة من شأنها أن تحدث اغتراباً ثقافياً لدى بعض المثقفين ، بحيث إن العربي يتصور نفسه كما يصفه الإخصائيون الغربيون . هذا الهجوم الشرس مبالغ فيه جداً[2]

---

(١) نفس المرجع ص ٢٠ .

(٢) نفس المرجع ص ٢١ .

لا الاستعمار ، ولا وفرة الإعلام استطاعا تسوية المشاكل النفسية . بيد أن حكماً يراعى الفروق الدقيقة أكثر ، وعلى نحو ما ، أكثر تفاؤلًا بالنسبة للمستقبل يستأهل الصدور . فى الواقع ليس أكيداً أن المدرسة الاستشراقية المعاصرة قد ظلت عدا بعض الاستثناءات المحدودة والمعروفة جداً ـ نصل رمح الإمبريالية الثقافية ككل بحث يطمح أن يكون علمياً ، لكنه يعالج مشاكل الإنسان ، بالطبع تأثرت المدرسة الاستشراقية بالأحداث الفورية والعابرة لما يجرى على الساحة اليومية ، فرضت هذه الأحداث بعض الاتجاهات على تقصى الحقائق . تشبعت هذه المدرسة بمفاهيم ضمنية منحدرة من حقبة السيطرة الغربية التى تؤيد ، جزئياً ، رؤية عبر منشور مشوه ، وأخيراً فهى موسومة بالأفكار التقليدية للأساتذة السابقين الذين ثبتوا ، فى هذه المادة ، ميثودلوجيا (منهج) تبحر محدد وامتثالية استاتيكية ، نقطة ضعف الاستشراق الرئيسية هى إذن فى الوقت الراهن ليست آتية من الذاتية العدوانية بقدر ما هى آتية من انغلاقه فى غل قديم جداً ، من بناه المتحجرة بفصل التقاليد الأكاديمية والتخصص المهنى المفرط .

وفى نهاية المطاف ، يبدو أن للاستشراق ، بمراكمته المعارف المتبحرة التى لا تنتشر نشراً واسعاً خارج حلقات العارفين والتى تواصل التفوق على دراسة الظاهرات الاجتماعية الشاملة التى تولد من التأكيد المشروع لهوية أصلية ، تأثيراً على الرأى العام الغربى أقل من تأثير هذا الرأى عليه فهو يقوده أحياناً ويفرض عليه آراءه غالباً[1] .

---

(١) نفس المرجع ص٢١ .

الأبعاد : تسييس العقول لقابلية التشكيل الغربي :

بعد العرض السابق للخطاب الاستشراقي نجد أن الاستشراق نشأ في ركاب الاستعمار حيث كانت البدايات الحقيقية له مع دخول نابليون إلى مصر في حملته الفرنسية . وهذه في واقع الأمر لم تكن حملة عسكرية فحسب إذ صحب نابليون معه إلى جانب جيشه العسكري ، جيشاً من العلماء والمفكرين اتجهوا إلى دراسة الحياة المصرية من جميع جوانبها ، وألفوا كتاباً عرف باسم «وصف مصر» وكان الهدف الظاهري لهذه الدراسات ملفاً سياسياً من نابليون إلى المسلمين لإرضائهم إلا أن الهدف الحقيقي لم يكن كذلك بل كانت هذه الدراسات وسيلة من وسائل الاستعمار تمهيد سيطرته على الفكر المصري والإسلامي تمهيداً لإحكام قبضته عليه بعد الوقوف على أوضاعه ونواحي ضعفه . وهكذا اصطبغت الدراسات الاستشراقية منذ البداية بالنظرة المزدوجة ، فهي من الظاهر تهدف إلى دراسة الشخصية المصرية ، ومن الباطن تهدف إلى تسييس العقول لقابلية المستعمر الغربي .

ومن هنا يمكن أن نحدد أهم أساليبه الاستعمارية فيما يلي :

١ ـ الإلمام بكل صغيرة وكبيرة في المجتمع الإسلامي وتصويره بصورة تسهل على الاستعمار الغربي الإستيلاء عليه ، أي أن الدافع الأساسي استعماري .

٢ ـ لقد كان الاستعمار على يقين أنه لن يستطيع أن يستولي على العالم الإسلامي مادام الإسلام قائماً فيه ومادام يغذي وحدته الفكرية . ومن هنا وجه علماؤه إلى دراسة تراث الشرق الإسلامي وخاصة الإسلام واللغة لكي يجدوا السلاح الذي يستطيعون به ضرب الإسلام ويمهدوا الطريق لدخول المستعمر .

٣ ـ لقد اتسمت الدراسات الغربية فى الشرق بطابع العنصرية لأنها قامت على نظرية العرق التى أكدت تفوق الإنسان الغربى الآرى على الإنسان السامى الذى ـ هو فى زعمها ـ بطبيعته التكوينية يعانى من تخلف لا يمكن الخلاص منه مطلقاً . ومن ثم كان الاستشراق الغربى يهدف إلى ترسيخ أسلوب المغايرة بين الشرق والغرب وتوثيق مبادىء نظرية العرق . لذلك فقد حرص من خلال دراساته للشرق على إبراز التخلف الشرق فى مقابل التفوق والعقلانية الغربية . وفى ضوء تأكيد هذه المغايرة تكون مفهوما الشرق والغرب كمفهومين متغايرين ومتناقضين فى التفكير ومستوى الحياة . وكان الغرب دائماً هو الأقوى والشرق هو الأضعف ثقافة وعرقاً .

أساليب الاستشراق فى ضرب الوحدة الفكرية فى العالم الإسلامى والقضايا التى طرحها :

لقد قلنا إن الاستشراق كان مطية الاستعمار الذلول ، وكان هدف الاستعمار الأساسى هو الولوج إلى أفئدة الشعوب العربية لتهيئتها لقبول الوصاية الاستعمارية ، وكانت أساليبه فى ذلك متعددة ، كلها تركز على أهمية ضرب الوحدة الفكرية ، ومهما اختلفت محاولات دراساته إلا أنها جميعاً كانت تنطلق من مسلمات مسبقة عن الشرق تغذيها فى ذات الوقت أطماع المستعمرين وإقناعه بنظرية العرق . ومن هنا جاء ضرب الاستشراق للوحدة الفكرية من عدة نواح :

أولاً ـ إضعاف الروح المعنوية لدى المواطن العربى وتشكيكه فى ذاته : فقد انداحت دائرة الاستشراق فى دراساته عن الشرق وشعوبه وقدمها فى صورة سوداء . فقد أكد الاستشراق على أن الشرق موسوم بالغيرية وأنه سلبى ، لا يستطيع بحكم طبيعته المشاركة فى السلم الحضارى ، وفى نفس الوقت فهو عديم النشاط عديم الاستقلال لا يستطيع الاعتماد على نفسه . وقد تفنن الاستشراق فى عرض هذه القضية مستشهداً بالأوضاع التى عليها الشعوب الشرقية مقارنة بالشعوب الغربية وما آل إليه مآلها من التفتت والتخلف فى الوقت الذى ارتقى فيه الشعب الأوربى درج العلا فى السلم الحضارى . والسمة الحتمية لذلك أنه لا بد للشرق أن يقبل وصاية أوربا لكى يسهل عليها إدارة أموره الفكرية وسياسة حكمه . وطبعاً هذه النظرة للشرق وأهله واضحة إنما هى صورة معبرة تماماً لما حرص الاستعمار الغربى على الترويج له وهو فوقية الغرب فى مقابل الدونية الشرقية فى ضوء « نظرية العرق » التى ابتدعتها وروجت لها بالرغم من مخالفتها لمنطق العقل والعلم . وقد كان هذا

أثره على الشعوب الشرقية وخصوصاً أنها كانت قد وقعت فى ذلك الوقت ــ وما زالت ــ فى مراحل الركود والضعف . كانت حضارة أوربا تمثل بالنسبة لها ــ المثل الأعلى للتقدم والعقلانية وبالتالى فقد كان لهذا التصور أثره على العقول الشرقية إلى حد أن كثيرين منهم خايلهم الإغراء ورضوا لأنفسهم أن يكونوا عوناً للاستشراق والاستعمار فى الشرق الإسلامى ضد الإسلام وتراثه .

ثانياً : كان المستشرقون يركزون فى دراساتهم على ماضى الشعوب الإسلامية على اعتبار أنها تمثل أزهى فترات الشرق ، فحرصوا على إبراز خصائص هذا الماضى وتشويهه على اعتبار أنه إذا كان الماضى مشوهاً فالنتيجة الحتمية لذلك طبعاً أن تخلف الشرق فى الوقت الحاضر أمر لا مفر منه ما دام مرتبطاً بتراث ذلك الماضى المتخلف . وهذا بدوره مرسخ لأوضاع الاستعمار ولأهداف نظرية العرق ولا حياة لشعب نحى عن تراثه وماضيه .

ثالثاً : البحث فى الحضارات الشرقية القديمة . فلقد نشط الاستشراق فى هذا المجال ، ولم يكن غرضه فى ذلك إحياء التراث الشرقى إنما كان يرمى من وراء ذلك إلى تجديد بعض النعرات العصبية القديمة ، وإحياء الفروق بين الشعوب الشرقية لكى يذكى روح الخلاف بينهم ، ويكون بذلك قد ضرب الوحدة الفكرية القائمة فى الصميم .

وقد تحقق له بالفعل ما أراد إذ دبت الخلافات المذهبية والطائفية بين شعوب الشرق وخاصة الشرق الإسلامى ، وأضرمت بينهم نار الفتنة ونار الحروب الأهلية . وأكدت الخصومات بين أبناء الدين الواحد واللغة الواحدة ، مما مهد لدخول الاستعمار بحجة المساعدة أحياناً والنصرة أحياناً أخرى .

رابعاً : لقد كان الإسلام واللغة العربية هما الهدف كما قلنا سابقاً ، لأنهما أساس الوحدة الفكرية فى الشرق الإسلامى ، ومن هنا نشطت الدراسات الشرقية التى قام بها الاستشراق ، وقد كان لسمومهم التى نفثوها حول الإسلام سيىء الأثر على مكانة الإسلام وعلى عدم صلاحية الإسلام كمنهج سلوكى محدد لحياة المسلمين ، ومن ذلك التشويه المنظم .

(أ) عمدوا إلى شرح القرآن الكريم وخاصة المتشابه منه بصورة تبعث الشك فى نفوس المسلم وتزعزع دينه فى نفسه وسنذكر أمثلة كثيرة على ذلك .

(ب) عمدوا إلى بعض مبادىء الإسلام والتى قد تغيب الحكمة منها عن البعض واستخدموها كسلاح للحط من قدر الإسلام وإثبات أنه غير صالح كمنهج للحياة . ومن ذلك مثلاً ما يتعلق بقضية المرأة حيث إنهم أشاعوا ما زعموا أن الإسلام ظلم المرأة وأن مبادئه تفضل الرجل عليها فى كل شىء . وهناك الكثير من الأمثلة التى سنذكر منها الكثير تدفع موقف المستشرقين فى تفسيرهم لمبادىء الإسلام . وكيف استخدموا فى سبيل تزييفهم مناهج ملتوية دسوا فيها السم والتمسوا به بما عثروا عليه من أحاديث موضوعة . ومن نماذج لأولئك الذين ارتكبوا المفاسد باسم الإسلام ، والإسلام منهم براء ... إلخ . ذلك مما كان له أثر على توتر العلاقات بين الشرق والغرب وعلى سحب الثقة من المستشرقين وعلى نظرة الشعوب الأوربية له كذلك .

(جـ) عمدوا إلى سيرة الرسول (ﷺ) فتناولوها بالتشويه والتحريف وأشاعوا أن الرسول لم يكن إلا مجدداً للمسيحية ، واختلقوا فى سبيل إثبات ذلك الروايات المنحولة ، فقد ساعدتهم دراساتهم لتراث العالم الإسلامى على ذلك حيث إنهم لم يتركوا شاردة ولا واردة صح نسبتها أو لا ، إلا وأحصوها واستفادوا منها أعظم استفادة فى خدمة أطماعهم .

خامساً : عمدوا إلى اللغة العربية وهي الأساس الثاني للوحدة وأكدوا على أن اللغة العربية عاجزة عن مسايرة التقدم العلمي الحديث وأن الشرق إذا أراد أن يتخذ سبيله إلى الحرية والتقدم فلا بد له من تبني لغة الغرب لأنها لغة العلم والحضارة . وكان لذلك صداه في نفوس بعض مفكري الأمة الإسلامية حيث دعت فئة من هؤلاء إلى التخلي عن اللغة العربية وإحلال الحروف اللاتينية محلها . وقد أسهم الاستشراق كذلك في إحياء اللهجات المحلية لكي يقصي اللغة العربية عن حياة المسلم باعتبارها عاملاً من عوامل الوحدة الفكرية التي يسعى إلى تفتيتها .

ومن هنا فقد كانت جهود الاستشراق موجهة إلى تنحية الإسلام عن حياة الشرق بدعوى أنه ما عاد يصلح أسلوب حياة إلا لمرحلة مضت وانتهت ، وتنحية اللغة العربية عن أسلوب التعامل بين شعوب العالم الإسلامي على اعتبار أنها عامل ثان للوحدة الفكرية .

هذه صورة موجزة عن أساليب الاستشراق التي استطاع عن طريقها ضرب الوحدة الفكرية في العالم الإسلامي في الصميم .

ولقد أسهم الاستشراق عن طريق أسلوب التضليل الذي اتبعه في طرح قضايا فكرية أساءت إلى العالم الإسلامي وإلى الإسلام أيما إساءة وخدمت في نفس الوقت أطماع الاستعمار ومذاهبه ، ومن هذه القضايا .

١ ــ أقام دراساته على نظرية العرق التي تعنى « دونية الشرق » و « تفوق الغرب عليه » إذا ما تمسك بتراثه الإسلامي ولا سبيل إلى تقدمه إلا بمسايرته للغرب ، وقبول الوصاية الغربية عليه .

٢ ــ أسهم في خلق العداء تجاه العرب ، وفي بث روح العنصرية بينهم وفي النظرة المذهبية إلى التراث الإسلامي وكل ما يمت إليه بصلة .

٣ ـ شوه المعالم الحضارية للتاريخ الإسلامي إما عن طريق تنحيتها أو ازدرائها .

٤ ـ يؤخذ عليه أنه خلق الصراعات المذهبية والعنصرية والطائفية . وأغفل الأسلوب التحليلي العلمي في دراسته للأوضاع الشرقية والإسلامية .

٥ ـ نظر إلى الإسلام على أنه مركب ثقافي يمكن دراسته بعيداً عن الظروف السياسية والاقتصادية والواقع الاجتماعي للعالم الإسلامي . وكان له أثره ودوره الخطير في النظرة السيئة للإسلام وأهله ، والتي رسخت في أذهان الشعوب الأوربية .

كان له الدور الأكبر في صرف الأذهان عن الإسهام العلمي الذي قدمه المسلمون الأوائل في مجال العلم والمعرفة . حيث أكد للرأي العام الدولي أن العرب لم يسهموا مطلقاً في تطور العلوم ، وأن ما يقال عن وجود علم عربي وفلسفة عربية إنما هو نقل وترجمة قام بها موالي العرب للفلسفة اليونانية والتراث الاغريقي وعلوم مدرسة الإسكندرية .

الأمر الذي أدى إلى تحويل أذهان وأسماع العالم الغربي بأكمله عن البحث في الإسهام الحضاري الذي قدمه المسلمون للتراث الإنساني .

انصرف الاستشراق إلى الاهتمام بالنواحي التراثية والتاريخية الإسلامية فقط ، في حين أن مجال الدراسات الاجتماعية لم يكن لها أي نصيب في الشرق ولم يكن هناك أي اهتمام بالموضوعات المعاصرة فيما يخص قضايا التحديث والتنمية والتكنولوجيا ، بل على العكس من ذلك رسخ في الأذهان أن الشرق بطبيعته لا يقبل الإصلاح . كل ذلك من أجل خدمة مصالح الاستعمار في العالم الإسلامي . ولكي لا يساهم في تطور العالم العربي وتقدمه فيقف على قدم المساواة أمام الغرب بدلاً من الرضوخ له . ..

وبذلك يكون الاستشراق قد نجح في ضرب الوحدة الفكرية من خلال ضرب الدين الإسلامي واللغة ، ونجح كذلك في نشر أفكاره في العالم الإسلامي من خلال جماعة المستغربين .

وهناك نقطة في النهاية أحب أن أوضحها ، وهي أن الاستشراق لم يكن كله شراً ، وإن كان هذا الغالب عليه . إلا أنه وجد هناك طائفة من المستشرقين اتجهت لدراسة الشرق من أجل البحث العلمي النزيه ، إلا أن تأثير هؤلاء لم يكن يذكر لسببين :

(أ) أنهم لم يلقوا تأييداً من أضرابهم بل على العكس من ذلك فقد حوربت كتبهم واتهموا بالعصبية وبالخيال الواسع . وكان يعوزهم الدعم المالي الذي كان موفوراً لغيرهم ممن خدموا الاستعمار ومذاهبه .

(ب) أن هؤلاء وقعوا في أخطاء نتيجة لعدم فهمهم للغة العربية وعدم معايشتهم لجو المجتمع الإسلامي مما دفعهم إلى تصور وضع الشرق في ضوء نظرائهم وخبرتهم الغربية .

كما أن الصورة المشوهة التي بثها الاستعمار المعادي كان لها من القوة والتأييد بحيث إنه كان لها الصدى الوحيد لدى الشعوب الأوربية ولدى ضعاف العقول من أبناء العالم الإسلامي .

(جـ) يقول دكتور عبد الجليل شلبي[1] : وفي الحق أن المبشرين والمستشرقين رغم ما يسيئون به إلى الإسلام خليقون أن يكونوا نموذجاً للداعية المسلم في حسن الاستعداد وسعة القراءة والاطلاع .

---

(١) الإرساليات التبشيرية ص١٣ ـ د. عبدالجليل شلبي ـ منشأة المعارف .

أزمته .... منهج وتاريخ :

ولا شك أن الموقف العدائى من الاستشراق ناجم عن علاقات الاستعمار الغربى بالشرق . ولما كان الاستشراق إحدى وسائله فى تسييس الشرق لخدمة الاستعمار وأهدافه ، وهو مظهر من مظاهر ذلك العداء .. وإذا كان الغرب قد غزا الشرق والإسلام عسكرياً ، فإن الاستشراق ، رافق هذا الغزو وقدم له وبارك ومهد له الطريق على الجبهة الثقافية والفكرية .

« بل نرى فيه فصلاً فى مؤامرة كبرى على الإسلام والمسلمين ... فالغرب والاستشراق عندما كان مسيحياً أراد ضرب الإسلام لنشر المسيحية بالقوة والتبشير . وهو عندما صار علمانياً أراد « تخريب » عقائد المسلمين لتضعف مقاومتهم فيسهل استغلالهم[1] .

ولقد خلفت تلك العلاقات السيئة بين الغرب والشرق إحساساً سيئاً فى نفوس الشرقيين بأن المستشرق لايمكن أن يكون حسن النية أو علميا عندما يتعلق الأمر بالإسلام ، فالثناء على أمر معين فى الإسلام أو الشرق من جانب بعض المستشرقين . قد لايكون خالصاً فى بعض الأحيان ، وإنما هو لحاجة فى نفس يعقوب .

ولم يترك الاستعمار الشرق الإسلامى إلا وقد ترك جراحاً عميقة ما زالت الأمة العربية تقاسى من شرورها وويلاتها آلاماً طافحة .. الصراع اليهودى ـ الفلسطينى العربى ـ الإسلامى .. دعم الكيانات الأقليمية والطائفية . وآل الأمر إلى مواقف جامدة بدأ معها الاتزان ، سذاجة أو خيانة .. فالمثقفون المسلمون اليوم بين جامد وحاقد ، وتعب ويائس .. وانعكس تاريخ نشأة

---

(١) ثقافة الاستشراق ومصائره ـ الفكر العربى عدد ٣١ ـ د. رضوان السيد .

الاستشراق على كل عمل يقوم به المستشرقون بأنه ليس خالصاً من الناحية العلمية وليس مستقلا ببحوثه وتوجهاته ، فهو لابد أن يكون تابعاً لجهة رسمية معادية للإسلام والمسلمين بالغرب ، أو هو رأس الحربة فى منظمة سرية متآمرة على دين المسلمين وحضارتهم .

ومادام مصطلح « استشراق ومستشرقون » ماثلا على الساحة الثقافية فستظل صورته الاستعمارية ـ التبشيرية ـ والسياسية السرية ـ ماثلة فى ذهن المثقفين العرب والمسلمين ، إنه هو « الوجه الأكاديمى أو المدون للسياسية الاستعمارية فى الشرق » وعلى حد وصف إدوارد سعيد : سيظل بعداً من أبعاد العلاقة المعقدة والصراعية بين الشرق والغرب .

الاخصائيون يرفضون الاستشراق :

لما كانت مصادر الاستشراق تقوم فى الأعم الأغلب على تقارير الإدارات الاستخبارية والمندوبين للاستعمار وموظفيه ، والبعثات الدينية الكاثوليكية والبروتستانتية وإحصاءات وتقارير مجالس إدارة الشركات ، وأخبار الرحلات .. والتقارير السرية لجهاز التجسس ، وذلك كله مصبوغ صبغاً شديداً بكل منوعات العرقية والعنصرية ، ويتصف أكثرها اعتدالا بالغرابة وبالاتجاهات المغرضة التى تخدم الغربى المتمركز حول ذاته ، والمحورية الغربية للاستعمار ، هذه جميعها لاتصلح بأى حال من الأحوال من وجهة النظر الأكاديمية دعماً لأى عمل يتوخى البحث والعلم[1] .

من هنا أخذ المنهجيون العلميون ذوو الاختصاصات العلمية يعون جيداً ذلك التفاوت ، بين العلم الاستشراق والمادة موضوع الدراسة ، كذلك

(١) نفس المرجع ـ الاستشراق ومصادره ص١٨ .

أخذوا يعون أيضاً الفروق المنهجية بين عمل الاستشراق ، وبين مفاهيم العلوم الإنسانية والاجتماعية ومناهجها ، وأدوات عملها .. وبين تلك التي يستخدمها الاستشراق[1] .

هكذا استبعد الاستشراق التقليدى من قبل تاريخ الشرق ونهضته القومية وأصبح مقطوعاً عن الواقع قياساً على تقدم البحث العلمى ، فصار من اللازم أن يعاد النظر فيه جملة وتفصيلاً[2] .

والاستشراق فى ذاته يعانى أزمة :

التقرير البريطانى :

فى عام ١٨٤٦ أسس « معهد الشرق الأوسط » فى واشنطن ، ومالبث أن اتبع عام ١٩٤٩ « مجلس الشئون الشرق أوسطية » فى نيويورك . وفى عام ١٩٤٧ عمدت لجنة سكاربورج بناء على مشورة من « أ. أربرى » إلى الشروع بتجديد الاستشراق البريطانى : إذ كانت نهاية الحرب تملى الاضطلاع بالمسئوليات التى تظل ملقاة على عاتقنا فى المستعمرات ، وبعلاقتنا الجديدة .. ويوجه التقرير نقداً صريحاً لـ « المحورية الأوربية » ويشير إلى أن تأخر الدراسات الشرقية فى بريطانيا العظمى « قياساً على فرنسا وألمانيا وإيطاليا وهولندا والاتحاد السوفيتى (سابقاً) والولايات المتحدة » لا يتفق كما يجب مع وضعنا كقوة عظمى ولا يتلاءم مع مسئوليتنا الامبراطورية ، فينبغى تنظيم

---

(١) الاستشراق فى أزمة ص٧٧ الفكر العربى .

(٢) نفس المرجع ص٧٧ .

دراسات حديثة لمساعدة العلمسين بشكل خاص من أطباء' ومهندسين واقتصاديين . ممن يرغبون في تكريس جهدهم للشرق ويودون الارتباط به ارتباطاً صحيحاً[1] .

التقرير الأمريكي : لجنة هايتر :

بعد أربع سنوات من كتابة التقرير البريطاني .. جاء رد فعل لجنة هايتر رداً عنيفاً وسياسياً ، وبما أن مركز الثقل في العالم قد انتقل من أوربا إلى أمريكا فإن الاستشراق اكتسب تجديداً تبعاً لمتغيرات الساحة السياسية واهتماماً فلم يعد مقصوراً على علماء اللغة بل كما يقول التقرير اتسع ليشمل تخصصات واسعة مثل : المؤرخين والحقوقيين والاقتصاديين والاختصاصيين في العلـــوم الاجتماعية .. وذلك كما يقول التقرير ـ مع أهداف الاستشراق الأمريكي الجديدة وهي :

- أن يتوافر للأمة احتياطي أعظم مما هو متوافر لها الآن ، وأشد توازناً من جهة الباحثين ومن وجهة المواد المنشورة حول هذه البلدان .
- أن يصار إلى المساهمة في تشكيل هيئة تتولى المواد المنشورة حول هذه البلدان .
- أن يصار إلى تشجيع الاهتمام باللغات الشرقية تشجيعاً غير مباشر .
- وأخيراً أن يصار إلى رفع نسبة الدراسات الحديثة ونسبة دراسة اللغات الحديثة قياساً على الدراسات الكلاسيكية[2] .

---

(١) نفس المرجع .

(٢) نفس المرجع ص٨ .

وتحلل اللجنة الجهد المبذول من قبل الولايات المتحدة ، التى كانت تأتى فى المرتبة الأخيرة أيام لجنة « سكاربورج » وتعرب عن تأثرها الشديد بـ « اتساع رقعة الجهد المبذول ، وبنمط التنظيم الذى يعتمد عليه هذا الجهد ، والتشديد على الدراسات الحديثة » ثم تلفت انتباه الحكومة البريطانية إلى النقاط التالية :

● قوة الدعم الذى تخصصه حكومة الولايات المتحدة للدراسات الشرقية والصقلية نظراً لأهميتها القومية .

● الجهود المبذولة من قبل دراسة المجالات لاسقاط الحواجز الفاصلة بين مختلف فروع المعرفة ، والعمل على تقدم دراسة هذه المجالات تقدماً متوازياً .

● تنشيط الاهتمام بالدراسات الحديثة .. دور المنح التى تدفع للطلاب المجازين بغية توجيههم نحو حقول عمل جديدة .

● تأمين الحوار وتأمين مصالح الدولة ، تحسين نوعية الباحثين .

وذلك خطأ وقع فيه المستشرق « جب » حينما ألف كتاب : تاريخ الإسلام .. اعتمد على تسعة عشر مؤلفاً أوربياً ليس بها سوى شرق واحد .

التقرير الأمريكى لجنة هايتر :

وحينما انعقد مجمع السوسيولوجيا الإسلامية فى بروكسل (١١ ـ ١٤) سبتمبر ١٩٦٠ ليستمع إلى عشرين متكلماً ، لم يكن بينهم عالم شرق واحد .. الأمر الذى أثار احتجاج « جاك بيرك »[1] .

---

(١) الاستشراق فى أزمة ص٨٠ .

وقد حاول د. حسين مؤنس : أن يلفت الأنظار عبثاً إلى أن قسماً كبيراً مما عرض فى المجمع قد تجاوزه الزمن ، وصار متأخراً عن ركب التاريخ الذى يصنع نفسه .

مؤتمر تضامن الأفرو ــ أسيوى :

وقد أعطى مؤتمر تضامن الأفرو ــ أسيوى فى باندونج (ابريل ١٩٥٥) دفعاً حاسماً لعملية التحديد الثقافى ، ولاسيما فى التاريخ والعلوم الاجتماعية والأدب فى القارتين .. وقد عالج المؤتمر الأول للمستشرقين السوفيت الذى انعقد فى طشقند ١٩٥٧ أربعين موضوعاً عاماً نخص بالذكر :

× تهافت الاستعمار الغربى .
× مهام الاستشراق السوفيتى بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى .
× الأهمية العالمية لمؤتمر باندونج .

وكانت أهمية مؤتمر باندونج ترجع إلى أنها اتفقت مع تقرير « هايتر » والأطروحات الأيديولوجية لدى القادة الصينيين . فى توجيه النقد « للمحورية الأوربية » أى برفضها والتخلى عنها نهائياً من حيث المبدأ ، إن الحضارة الغربية ما زالت تعانى من عجرفة ثقافية لا مبرر لها سوى أنها تشوه صلتها بشعوب العالم الأخرى .

ويندد « نيد هام » العالم البيولوجى ، الذى أخرج موسوعته بعد خمسة وعشرين عاماً من العمل الدءوب التى يطمح فيها أن تمد حضارة عصرنا وثقافته بالبعد الصينى بالغرب بقوله :

« إن الخطأ الأساسى الذى ترتكبه « المحورية الأوربية » يكمن فى المسلمة الضمنية التى تعتبر أن كل ما هو أوربى هو فى الوقت نفسه شامل ، لا لشىء إلا

لأن العلم والتقنية الحديثة اللذين نشآ بالفعل فى أوربا عصر النهضة هما شاملان .

ثم يبرهن جوزيف نيد هام على أن هذه المسلمة باطلة علمياً وتاريخياً فى آن واحد ، ويشدد على دور الدين بوصفه وسيلة اختراق وتكامل لأوربا .

تيار الاستشراق الاشتراكى:

كلمة افتتاح مؤتمر المستشرقين الخامس والعشرين للنائب الأول لرئيس الوزراء « أنستاز ميكويان » :

كان أهم ما فى الكلمة أنها بينت دور الحركات التحررية التى شملت آسيا وأفريقيا وغيرت طابع الاستشراق ومضمونه تغييراً جذرياً .. وأصبحت السمة له فى أن شعوب الشرق بدأت تخلق ، اليوم ، علمها الخاص ، وبدأت تصوغ تاريخها وثقافتها واقتصادها ، إن شعوب الشرق قد تحولت من كونها موضوعاً أو مادة للثقافة إلى كونها فى مصاف الشعوب الخلاقة ، وأشار إلى الدور الأساسى للاستشراق الجديد ، فقال : إن من واجب المستشرقين أن يعكسوا فى أعمالهم بصورة موضوعية ، أهم العمليات الجارية فى بلدان آسيا وأفريقيا ، وأن يعمدوا بصورة خلاقة ، إلى صياغة المشكلات الأساسية لصراع شعوب الشرق ، من أجل تحررها القومى والاجتماعى ، والتعويض عن تأخرها الاقتصادى . ويصبح أن نقول : إن الاستشراق لن يسعه أن يعول على كسب اعتبار واسع ولا على النجاح إلا عندما يصبح فى خدمة مصالح الشعوب الشرقية[1] .

---

(١) الاستشراق فى أزمة ص٨٥ .

أما كلمة مدير معهد الاستشراق فى موسكو فى مؤتمر المستشرقين الخامس والعشرين . فلقد عبر الأكاديمى ب.ب غافدروف عن الرؤية الجديدة للاستشراق الاشتراكى فقال : إننا معشر المستشرقين السوفيت ، نعتبر من واجبنا العلمى فضلًا عما يمليه علينا وعينا ، أن نساعد شعوب الشرق ، دونما انقطاع فى صراعها من أجل مستقبل أفضل ، وإننا مقتنعون بأن اكتشافاتنا ونتائجنا العلمية – ومنهجنا العلمى على إننا نسير أفضل .

ويشير « ج.شينو » إلى متغيرات العصر بقوله : لقد شاخ مفهوم الاستشراق وتخطاه الزمن ، ولكن الدراسات الأسيوية والأفريقية مازالت تطرح نفسها مصحوبة بمشكلاتها الخاصة : التخلف ، تاريخ الاستعمار ، الحركات التحررية ، الحركات القومية .. التقاليد .. العوائد .. الخ .

(شينو) و (جب) :

يكادان أن يتفقا على التحدث عن الامتياز القومى الأوربى ، فليس ذلك معناه أن الغرب استأثر به .. فثمة أجانب يأتون من أمكنة بعيدة حاملين معهم إرثاً ثقافياً أو اجتماعياً مختلفاً ، فيتمكنون غالباً من التوغل بسرعة شديدة ، ومن وجهة أصيلة فى حياة شعوب أخرى .

الموقف الحالى للاستشراق :

هل يجدد الاستشراق من وظيفته بعد أن نالت هذه الدول الشرقية استقلالها ، وانحسر الاستعمار الأوربى ؟ ظهرت قوى استعمارية حديثة تتمثل فى القوى العظمى تحت وطأة هذا التغير الدولى وانهارت حدة الصراع الدولى بعد انهيار الاتحاد السوفيتى .. أصبح الاستشراق يبحث له عن دور يمكن أن

يلعبه فى دول العالم الثالث المستقلة ، والتى تقف من الغرب عموماً موقف التحدى ، ولم يعد أمام المستشرقين إلا أن يسلكوا أحد طريقين اثنين :

- إما أن يستمروا فى بحوثهم ودراساتهم مثلما كانوا يفعلون من قبل على حد قول إدوارد سعيد ، موضوعات : التاريخ واللاهوت ، والجغرافيا ، والعلوم والفنون فى الشرق فى صورها الحقيقية والمتخيلة .. هل يظلمون كذلك كما لو لم يكن شىء قد حدث .
- أو أن يعدلوا أساليبهم القديمة بحيث تتلاءم مع الأوضاع الجديدة .

وكلا الموقفين صعب ، وبالأخص أن الكثيرين من المستشرقين لايكادون يعترفون بأن الشرق قد تغير أو يمكن أن يتغير . ويبقى بعد ذلك كله طريق ثالث :

- وهو أن يسقط علماء الغرب ، الشرق من اعتبارهم ويطوى سجل الاستشراق للأبد ، ولعل ذلك هو الحل الوحيد إن لم يجدد من نفسه ورسالته ومنهجه وينفض روح الاستعمار منه[1] .

الاستشراق لايجدد من قضاياه :

لقد سوغ الاستشراق للاستعمار ممارسة الحكم المطلق فى الشرق وأوجدوا لأنفسهم التبريرات .. مع أنه أصبح ثابتاً أنه ليس من خير الشعوب « الحكم المطلق » وأنه هو أذى الإنسانية .. ومع ذلك رضى المستشرقون أن يعينوا الظالمين ويصدروهم إلى بلدان الشرق . فهل يستطيع الاستشراق أن يعيد النظر فى قضايا الشرق الأوسط من جديد ، ليرفع ما أسقطه من أوزاره على

---

(١) لم الاهتمام بالاستشراق ؟ ـ شكرى النجار .

الشرق . وكما مهد الطريق للغرب الاستعماري ذي الأغراض السياسية لاستغلال الشرق أن يعيد النظر من جديد يمهد الطريق أمام الغرب ليعترف بالإسلام ، وموضوعية الحوار لبناء علاقات إنسانية جديدة .. أم أن ذلك كله يخضع للرؤية السياسية التي يدعي الاستشراق أنه بعد عنها وأنها من مهام رجال السياسة ؟

لا شك أنه يكفي الاستشراق أن يعلن توبته بأنه يقبع تحت مظلة تحقيق النص التاريخي القديم .. أو أنه يكف عن الغمز واللمز للإسلام وقضاياه ورسوله ولغته ، أو أنه يسترجع تاريخ الاستشراق ليثير قضاياه القديمة ولكن بأسلوب اللوم والنقد .

إنما التوبة تكون برد المظالم إلى أهلها .. أي على الاستشراق أن يجدد من نفسه ومن منهجه ورسالته ، ويساهم في حل العلاقات المتوترة بين الشرق والغرب .

الاستشراق يتبنى مبدأ ما للسياسة للسياسة :

يقول رضوان السيد[1] : في أوائل شهر مايو من هذا العام احتفلت فيينا بالذكرى الثلاثمائة لتراجع الترك أمام أبوابها . وقد استمرت الاحتفالات شهراً كاملًا تخللتها محاضرات مستفيضة عن صمود سكان المدينة العريقة ، وعن التنظيم العسكري العثماني وأوضاع الدولة العثمانية وعلاقاتها بالغرب إبان الزحوف الإسلامية باتجاه أوربا (١٤٠٠ ـ ١٦٨٣) . وقد حاول منظمو

(١) ثقافة الاستشراق ومصائره وعلاقات الشرق بالغرب : رضوان السيد ـ إسهام مهدي . مرودي بارت ـ مجلة معهد الإنماء العربي ـ الاستشراق التاريخ والمنهج والصورة عدد ٣١ .

المهرجانات أن يخففوا من الطابع التحريضي للمسيرات . والاحتفالات عن طريق فتح مجالات لأحاديث شبه موضوعية عن القواسم المشتركة بين المسيحية والإسلام ، وعن العلاقات الإنسانية بين المسلمين والمسيحيين رغم الصراع العسكرى ـ فى العصور الوسطى ، وبرزت فى النقاش على هامش الذكرى : مسائل ، مثل الاعتراف بالإسلام كدين ، وبالمسلمين كمجموعة بشرية بأوربا المعاصرة .. ورغم ذلك كله ما استطاع المعتدلون أن يكتبوا صرخات المحرضين الذين رأوا فى القوة العاملة الإسلامية بالغرب زحفاً من نوع جديد يهدد مصائر الحضارة الغربية المعاصرة ، كما هددوها من قبل ، وكما يتهددها الروس اليوم .

قبل ذلك بقليل كان مؤتمر المستشرقين الألمان قد انعقد بمدينة توبنجن وسط إصرار المنظمين على الطابع الكلاسيكى للاستشراق ، وعندما ارتفعت أصوات بعض شبابهم مطالبة ببحث العلاقات الإسلامية والمسيحية ، وقضايا المشرق الإسلامى اليوم ـ ذهب كبارهم إلى أن ذلك كله سياسة بحتة ، لا شأن للاستشراق بها ، وتباينت حجج هؤلاء فى هذا الصدد . فمن قائل : إن دراسة القضايا المعاصرة تقتضى ضرورة اتخاذ موقف ؟ والموقف بحد ذاته مضر .. ومن قائل إن صراعات المشرق المعاصر مختلفة وغير واضحة بحيث يتعذر طرحها فى نقاش علمى هادىء . ورأى فريق ثالث : أن بحوثاً من هذا النوع من مهام أساتذة العلوم السياسية والاستراتيجيين ، ولن يستطيع المستشرقون أن يقولوا فى شأنها جديداً .

يعلق رضوان السيد فيقول : هذان المثالان ، قصدت من ورائهما التدليل على أمرين :

الأمر الأول : الحضور المتصل للمسألة الإسلامية بالغرب من جهة ،

وصيرورة كل بحث استشراق عن قضية معاصرة على الخصوص : إلى تأمل علاقات الشرق بالغرب والمسيحية الغربية بالإسلام .

الأمر الثانى : وما عدا ذلك يدخل فى نافلة القول ، ومماحكات الغفلة أو التجاهل المتعمد ، وفى الأغراض السياسية .

نتائج .. وقصور :

× ينبغي أن تتجه مركزية الاستشراق إلى الدراسة المتعمقة للمشكلات الراهنة .

× التعاون المشترك بين أكاديميات البحث العلمي والجامعات ، بين الشرق والغرب من أجل إيجاد حلول مشتركة لمشكلات التخلف والتنمية ، ومعالجة ما خلفه الاستشراق الاستعمارى ، والنظر من جديد إلى الشرق على أنه مساهم فى الحضارة المعاصرة ومبدع فى الحضارات القديمة .

× خروج الاستشراق من تقاليده القديمة وصيغه المحورية وقوالبه التى يستعملها مقدماً مع دراساته للشرق الإسلامى والإسلام وتراثه[1] .

---

(١) الاستشراق رسالة استعمار . أ.د/ محمد ابراهيم الفيومي دار الفكر العربى .

فهرس الكتاب



العدد القادم

الإسلام
و
الغرب

للأستاذ الدكتور

محمود حمدى زقزوق